

سورة الكهف

مكية وهي مع البسمة مائة وإحدى عشرة آية واثنا عشر ركوعاً.

روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم أن سورة الكهف كلها نزلت بمكة (الدر المنثور). ويبدو أن المفسرين قد أجمعوا على كونها مكية. وهناك رواية عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه تقول إن الكهف ليست بمكية فحسب، بل هي من أوائل الوحي، حيث قال عن بني إسرائيل والكهف ومريم: "إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي" (البخاري: التفسير، سورة بني إسرائيل).

ويرى الآخرون أنها من السور التي نزلت دفعة واحدة، حيث ورد عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: "نزلت سورة الكهف جملة، معها سبعون ألفاً من الملائكة" (الدر المنثور، وفردوس الأخبار للدليمي الجزء الخامس ص ٢٧ رقم الحديث ٧٠٧٠).

مع العلم أن هذا الحديث لا يعني أن حماية الملائكة لبعض السور أكثر من غيرها، لأن التسليم بهذا يؤدي إلى القول بأن بعض السور أقل حفظاً من غيرها، وهذا غلط بالبداية. فنزول الملائكة لحماية سورة من السور لا يعني حمايتها وقت النزول، وإنما المراد به حمايتها فيما بعد. ذلك أن كل سورة تتضمن موضوعاً معيناً، وتتضمن أحياناً بعض الأنباء التي يشكك تحققها برهاناً على صدق تلك السورة؛ وهذه الأنباء تخص التغيرات الطبيعية تارة، كما تكون ذات علاقة بالأعمال الإنسانية تارة أخرى. والنبوءات المتعلقة بالأعمال الإنسانية تكون ذات أهمية قصوى، لأن الذين تحذروهم هذه النبوءات من العذاب يسعون جاهدين لدفع العذاب عن أنفسهم. وبما أن الأنباء يتم إعلانها في ظروف غير مواتية جداً على العموم لذلك يُعتبر تحققها ضرباً من المحال أو صعب الوقوع نظراً إلى الأسباب المادية، ولا يمكن أن تتحقق من أن دون يأتي الله بنصره من الغيب. فإذا نزلت سورة فيها أنباء قد تسعى القوى المعادية جاهدة لإبطائها، أمر الله تعالى ملائكته

المدبرين لمختلف شؤون الدنيا أن يخلقوا الأسباب المؤاتية حتى تتحقق تلك الأنباء بدون أي عائق. والجلي أنه كلما كان النبأ ذا تأثير أوسع كان مكر العدو لإبطاله أكبر، وتعددت الوسائل التي يستخدمها لذلك، وبالتالي فإن الله سيسخر الأسباب تحقيقاً لذلك النبأ بالقدر نفسه. فبما أن جميع أسباب العالم مفوضة إلى الملائكة، يدبرونها وفق القوانين التي وضعها الله تعالى، لذلك إذا تضمنت سورة نبأ إلهياً كهذا يؤمر الملائكة - الذين سيتحقق النبأ من خلال الأسباب التي هي تحت تديرهم - أن يحافظوا على مضمون تلك السورة.. أي أن يهيئوا الأسباب الضرورية لتحقيق النبأ الوارد فيها. إذاً فالحماية لا تكون وقت نزول السورة من السماء إلى الأرض، وإنما تبدأ الحماية الحقيقية بعد نزولها، وتستمر إلى أن يتحقق ما في السورة من نبوءات.

أما فيما يتعلق بالتدخل الشيطاني أو التحريف الإنساني، فكل سورة بل كل آية ولفظ، وحتى كل حركة وسكون من القرآن الكريم، محفوظة على حد سواء وستظل محفوظة هكذا، ولا خصوصية لبعضها دون غيرها بهذا الشأن. وبما أن سورة الكهف تنطوي على نبأ هلاك الأمم الجبارة مثل يأجوج ومأجوج وكذلك على الفتنة المسيحية الأخيرة.. فنزول سبعين ألف ملك مع هذه السورة يعني أنه تعالى قد سخر منذ نزولها آلافاً من الملائكة لتحقيق هذا النبأ الوارد فيها.

زمن نزولها:

يرى الكتّاب المسيحيون أن سورة الكهف نزلت في حوالي السنة السادسة من البعثة النبوية (تفسير القرآن لـ "ويري")، ولكنها على الأرجح نزلت في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة النبوية، كما تدل عليه رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه التي سبق ذكرها آنفاً.

علاقة سورة الكهف بسورة الإسراء

أما علاقتها بسورة الإسراء فقد ذكرها المفسرون على النحو الآتي:

لقد سأل اليهود النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء: الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فتأخر الرد عن الروح فوضع في سورة الإسراء، بينما جاء الرد على السؤالين الآخرين عاجلاً ودفعاً واحدة فوضع في سورة الكهف (البحر المحيط، والدر المنثور).

ولكن هذا الجواب ليس مقنعاً، لأن سورة الكهف تحتوي على مواضيع أخرى أيضاً كتمثيل الجنيتين وسفر موسى وغيرهما. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا، والذي لزم المفسرون الصمت تجاهه هو: لماذا ذكرت هذه المواضيع الأخرى في سورة الكهف؟

أما القسيس "ويرى" فيقول نظراً إلى الأحداث التي وردت في هذه السورة: يجب تسميتها سورة العجائب! (تفسير القرآن لـ "ويرى")

وأرى أن المفسرين المسلمين لم يأتوا بتفسير صحيح، كما أن القس "ويرى" أيضاً غير مصيب في حكمه، لأنهم جميعاً فشلوا في استيعاب موضوع السورة وغايتها. الحق أن أذهان المفسرين ظلت منشغلة ببعض الروايات الناقصة أو الضعيفة القائلة بأن اليهود سألوا النبي ﷺ عن ثلاث مسائل غريبة، وبما أن الجواب على هذه المسائل ورد في هذه السورة، فلم يحاولوا التدبر في هذه السورة من أي منظور آخر. مع أنه ليس من المقبول أبداً القول بأن حادثاً من الأحداث يُذكر في القرآن الكريم فقط لأن اليهود أثاروا السؤال حوله. إن القرآن الكريم منهج متكامل، ولا علاقة له بسؤال أحد أو عدمه، وكان لا بد له أن يذكر كل ما يتعلق بالأخلاق والعبادة والروحانية والتقوى والمدنية والاقتصاد والسياسة وما إلى ذلك. فإذا كانت هذه المسائل الثلاث ذات صلة بالدين والأمانة فكان لا بد أن يبينها القرآن في كل حال، ولولا ذلك لما ذكرها القرآن قط وإن سأل عنها اليهود مليون مرة.

كما ليس من المقبول أيضاً أن يقال بأن هذه الأمور قد ذكرت معاً لأن اليهود أيضاً سألوا عنها في وقت واحد. ذلك أن المرء في بعض الأحيان يسأل عن عدة أمور، ولا بأس أن يجاب عليها بحسب ترتيبها في جلسة واحدة، ولكن لا يليق

مطلقاً بكتاب سماوي عالمي أبدي لا يختص بقوم أو عصر معيّن أن يجيب في وقت واحد على أمور متفرقة دون النظر فيما إذا وُجدتُ بينها صلة أم لا؟ لذلك كله أرى أن هذه الأفكار نشأت عن قلة التدبر، أو أن موعد حل تلك الإشكالات لم يكن قد حان آنذاك.

ثم إنه لما يخالف العقل تماماً وينافي عظمة القرآن كلبية القول بأن الجواب على المسألتين نزل عاجلاً فوضع في سورة الكهف، بينما تأخر الجواب على المسألة الثالثة فوضع في سورة الإسراء. السؤال المعقول الذي يفرض نفسه هنا هو: ما الداعي لتعجيل الجواب على المسألتين دون الثالثة؟

ومن المفسرين من أرجع ذلك إلى سبب آخر فقال: ذلك لأن القرآن أجاب على السؤالين، ولكنه اعتذر عن الرد على السؤال الثالث! وأقول: أولاً، إن هذا القول دليل على جهل صاحبه، لأن القرآن الكريم لم يعتذر ولم يتردد في الجواب أبداً، بل أجاب على السؤال المتعلق بالروح إجابةً مكتملة شافية.

وثانياً، إن رأيه هذا أيضاً مبني على الفكرة نفسها بأن الله تعالى كان بحاجة إلى أسئلة اليهود لبيان الأحكام في كتاب هو آخر الكتب وأكملها، أو أنه ﷺ كان مضطراً أن لا يبينها إلا بعد أن يسأل اليهود عنها! الحق أن القرآن يجيب على كل شبهة من شبهات اليهود والمشركين، ولكن ليس نتيجة سؤا لهم، بل كلما تناول القرآن موضوعاً من المواضيع أجاب على كل ما يمكن أن يثار ضده من وساوس وشبهات، بغض النظر فيما إذا أثارها اليهود والمشركون أم لا، أو أثاروها في تلك المناسبة أو في غيرها. الحق أن القرآن الكريم لا يبالي بالدواعي العابرة أبداً، وإنما يركّز على موضوعه الأساسي، لأنه لم ينزل لأهل زمنه فقط، وإنما للعصور كلها، لذلك فهو يركز على الرد على كافة الاعتراضات التي يمكن أن تثار حول الموضوع الذي هو بصدده، بغض النظر أن يثيرها أحد أو لا؟

وجدير بالانتباه أن الروايات التي بنى عليها المفسرون آراءهم تبدو مجروحةً عقلاً ونقلاً. فهناك رواية منسوبة إلى ابن عباس مفادها أن أهل مكة بعثوا وفدًا إلى يهود المدينة، وقالوا لهم: إن شخصاً عندنا قد ادّعى النبوة، فأعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل حتى ينكشف على الناس كذبه؟ فقالوا: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقولٌ. فرجع الوفد، وسألوا النبي ﷺ ما يلي: من هم أصحاب الكهف؟ ما هو حديث ذي القرنين؟ ما هي الروح؟ فقال لهم النبي ﷺ: أخبركم غداً. ولكن الوحي توقّف عنه خمسة عشر يوماً، فحزن حزناً شديداً، وفرح الكفار. وأخيراً نزل جبريل بالوحي، فقال له النبي ﷺ: لماذا تأخّرت كل هذه الفترة؟ قال: عتاباً من الله تعالى لأنك لم تستثنِ.. أي لم تقل: إن شاء الله. ثم أخبر النبي ﷺ بجواب الأسئلة الثلاثة. فورد جواب السؤالين في سورة الكهف، بينما جاء جواب الثالث في سورة الإسراء (الدر المشثور، سورة الكهف) وهناك رواية أخرى تُعزى أيضاً إلى ابن عباس ﷺ أن الكافرين بعثوا وفدًا إلى يهود المدينة يستشيروهم في شأن رسول الله ﷺ. فقالوا: "سلوه عن ثلاث خصال: عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح. فإن يخبركم بخصلتين، ولا يخبر بالثالثة، فإنه نبيّ، وأما إذا لم يستطع الإجابة على هذه المسائل أو أجاب عن الروح أيضاً فهو مفترٍ.* فإننا قد سألنا مسيلمة الكذاب عن هؤلاء الثلاث فلم يدر ما هي. وبعدها تقول هذه الرواية نفس ما ورد في الرواية السابقة، إلا أنها تضيف في الأخير: فأخبرهم النبي ﷺ عن حديث ذي القرنين وأصحاب الكهف، وقال عن الروح: قلّ الروح من أمر ربي (انظر المرجع السابق).

فأولاً: تُعزى هذه الروايات إلى ابن عباس ﷺ الذي وُلد بعد هذا الحادث بثلاث أو أربع سنوات. فلو كان هذا الحادث غير هامّ لقلنا إن غيره من الصحابة لم يرووه لأنهم لم يروا حاجة إلى ذكر هذا الحادث غير الهام. ولو كان حادثاً يخص

* لم نستطع العثور على رواية فيها الكلمات التي تحتها الخط. (المترجم)

أهل بيت الرسول ﷺ فقط لقلنا إن أهل بيته هم أدري به. ولكن هذا الحادث يبلغ من الأهمية بحيث إن أهل مكة يبعثون وفدًا إلى المدينة التي تبعد عن مكة ثلاث مائة ميل، ثم يرجع الوفد ويسأل النبي ﷺ عن الأسئلة الثلاثة؛ ويتوقف الوحي، فيفرح الكفار ويحزن النبي ﷺ! ولكن الغريب أننا لا نجد من بين الصحابة الموجودين في تلك الفترة أحدًا يروي حادثة كهذا، والشخص الوحيد الذي يرويها لم يكن قد وُلد بعد!

والاعتراض الآخر هو أن الروايتين تُنسبان إلى ابن عباس، وكل واحدة منهما تعارض الأخرى، حيث تقول إحدهما بأن اليهود قالوا: إذا لم يستطع الإجابة على المسائل الثلاث فإنه متقول، بينما تقول الرواية الأخرى إنهم قالوا إنه سيخبركم بخصلتين، ولا يخبر بالثالثة، وإن أخبر بالثالثة أيضًا فهو كاذب. فبأي الروايتين نأخذ؟ فلو أخذنا بالتي تقول إنه سيخبر عن الأمور الثلاثة إن كان صادقًا فماذا يفعل الذين يقولون: لم يأت الجواب على الأمر الثالث؟ هل يكذبون الرواية الأخرى أم يكذبون - والعياذ بالله - النبي ﷺ؟ أما إذا أخذنا بالرواية القائلة بأنه لو أجاب عن الروح أيضًا فهو كاذب فماذا يفعل من يرى أن في قوله تعالى ﴿قُلِ الروح من أمر ربي﴾ جوابًا شاملاً شافياً؟ هل يكذب الرواية الأخرى أم يكذب - والعياذ بالله - النبي ﷺ؟

أما أنا فأرى أن ما ورد في الروايتين مخالف للعقل، لذلك كلتاها باطلة، والرسول ﷺ صادق لا محالة.

أما الدليل على كونهما خلافًا للعقل فبياناه كالآتي: هل كان اليهود يعلمون جواب الأسئلة الثلاثة أم لا؟ فإذا كانوا يعلمون جوابها فمن الغباء الشديد أن يوجهوا إلى النبي، لمعرفة صدقه، الأسئلة التي يعرف جوابها آلاف اليهود. لنفترض أن متنبئًا كذابًا سمع من اليهود جواب تلك الأسئلة وأجاب عليها جوابًا صحيحًا، فهل يُعتبر ذلك الكذاب نبيًا صادقًا؟

ولو قيل: إن اليهود ما كانوا يعرفون جواب الأسئلة، فأقول: أفليس من الحمق الشديد أن يوجّه اليهود إلى النبي ﷺ، لمعرفة صدقه، أسئلة لم يكن لهم علم بأجوبتها الصحيحة؟ وما داموا لا يعرفون ما إذا كانت تلك الأجوبة صحيحة أم خاطئة فهل يصدّقونه بمجرد أن يجب عليها بأي شيء؟

نفس الاعتراض يقع على السؤالين الواردين في الرواية الثانية أيضاً. وبما أن الإجابة الصحيحة المعقولة على هذا الاعتراض مستحيلة فلا شك أن الروایتين من اختلاق بعض الكاذبين.

والاعتراض الثالث الذي يقع على الرواية الثانية هو: قيل فيها أن اليهود قالوا للوفد إنا قد سألنا مسيلمة الكذاب عن هؤلاء الثلاث فلم يدر ما هي. وهذا الجزء من الرواية يكفي لإبطالها. ذلك أنه مما لا شك فيه أن مسيلمة كان من كبار بني حنيفة، ولكن الثابت من التاريخ أنهم كانوا مسيحيين قبل أن يُسلموا على يد رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية، وأن مسيلمة - الذي ارتد وادعى النبوة فيما بعد - أتى المدينة مع قومه وأسلم، وأن الرسول ﷺ أمر قومه أن يرجعوا إلى ديارهم ويتخذوا كنيستهم مسجداً، ويواظبوا على الصلوات. (الزرقاني: الجزء الرابع، الوفد الخامس؛ وطبقات ابن سعد: ذكر وفادات العرب على رسول الله ﷺ، وفد بني حنيفة؛ وحياة محمد للسير ولیم مویر)

فثبت أن مسيلمة ادعى النبوة في أواخر الفترة المدنية من حياة نبينا ﷺ. فكيف يمكن إذاً أن يذهب إليه اليهود ويسألوه عن هذه الأمور الثلاثة مع أنها تتعلق بالفترة التي كان فيها الرسول مقيماً بمكة، والتي لم يكن مسيلمة الكذاب قد ادعى فيها النبوة بعد؟

إذاً فالروایتان خاطئتان وباطلتان تماماً، ولا يمكن تفسير آيات القرآن بناء عليهما. أما وقد ثبت بطلان هاتين الروایتين فيجب ألا نغيرهما اهتماماً، وإنما علينا أن نتدبر القرآن لنذكر الحكمة في ترتيب مضامين هذه السورة.

وأخبركم الآن بما فتح الله ﷻ عليّ بهذا الصدد، مبيِّناً لكم العلاقة بين سورة الكهف وسورة الإسراء من ناحية، وبين الأحداث الواردة في هذه السورة وبين ما ورد في سورة الإسراء من ناحية أخرى.

فاعلموا أنني قد برهنتُ من قبل أن سورة النحل تضمنت نبأً عن صدام المسلمين باليهود والنصارى، وأن سورة الإسراء زادت هذا النبأ إيضاحاً حيث بينت أن الله تعالى سوف يذهب برسوله ﷺ إلى المكان الذي يكون له ﷺ فيه احتكاك باليهود والنصارى، وأنهم أيضاً سيعارضونه ﷺ، فينهزمون. كما تضمنت سورة الإسراء كشفاً فيه نبأ عن استيلاء النبي ﷺ على المناطق الموعودة لليهود. كما ذكرت سورة الإسراء كذلك أنه كان من المقدر لليهود أن يتمردوا ويفسدوا في الأرض مرتين؛ وسيتم التمرد الأول في زمن داود ﷺ، فيطردون من بلادهم بسبب تمردهم، ثم يتوبون، فيعود بهم الله إلى بلادهم مرة أخرى. والتمرد الثاني سيكون في عهد المسيح، فتهدم معابدهم، ويُجْلون من أرضهم الموعودة.

كانت هذه النبوءات تتحدث عن الجزء الأول من الأمة الموسوية وهم اليهود، ولكن كان هناك سؤال لا بد من الرد عليه وهو: أنه لا زال هناك الجزء الآخر من الأمة الموسوية أي النصارى، وهم لم يشتركوا في العذاب الذي حل باليهود؛ فلم لا يُفهم من ذلك أن الأنبياء الواردة عن رقي الأمة الموسوية ستتحقق بواسطة النصارى بعد هلاك اليهود؟

كما كان هناك سؤال آخر يتطلب الرد أيضاً وهو: ماذا سيحدث في المستقبل بالمسلمين الذين حذرهم الله تعالى من اتباع خطوات اليهود حتى لا يتعرضوا للدمارين مثلهم؟

فجاءت سورة الكهف بالجواب على هذين السؤالين حيث تناولت حالات الجزء الثاني من الأمة الموسوية أي النصارى؛ كما أخبرت كيف يعامل الله تعالى أولئك المسلمين الذين سيتبعون خطوات اليهود.

هذا، وهناك سؤال آخر: ما هي العلاقة بين قصة أصحاب الكهف وتمثيل الجنتين وبين أحداث الإسراء الموسوي وذي القرنين وأجوج ومأجوج؟ وجوابه أن هذه الأحداث تخبرنا عن بداية الأمة المسيحية ونهايتها، كما تشير إلى المحن والمشاكل التي ستخلقها الأمة المسيحية للمسلمين جراء غفلتهم عن الدين.

إن أصحاب الكهف هم المسيحيون الأوائل الذين تحملوا في سبيل الدين أشد العذاب، فجزاهم الله على تضحياتهم العظيمة هذه في آخر المطاف، وآتاهم ترقية مادية وروحانية بفضل منه ورحمة. وكان هذا قبل ظهور النبي ﷺ، حيث كان النصراني الموجودون زمن بعثته ﷺ قد ضلّوا صراط الحق، وقد أشار الله تعالى بذكر أصحاب الكهف إلى أن اليهود لما أسخطوا ربهم اختار الله تعالى أصحاب الكهف، أو بتعبير آخر، المسيحيين الأوائل الذين تمسكوا بالحق والسداد، واختصهم بأفضاله وإنعاماته.

بعد هذا البيان كان من الطبيعي أن يردّ القرآن على السؤال الذي يفرض نفسه: لماذا حُرّم إذا هؤلاء النصراني من أفضال الله تعالى؟ فأجاب على ذلك بذكر تمثيل الجنتين حيث بيّن الله تعالى أننا أعطينا الأمة الموسوية جنتين؛ وهما جنة رقي الأمة اليهودية وجنة رقي الأمة المسيحية. فأما جنتهم الأولى فجاء تفصيلها في سورة الإسراء، بينما بدأ الحديث عن جنتهم الثانية بذكر أصحاب الكهف. ثم بيّن الله تعالى أن هؤلاء القوم تنكروا فيما بعد لمالك الجنتين الحقيقي سبحانه وتعالى، ونسوه، واحتقروا إخوانهم أي بني إسماعيل، ظانين أن الله تعالى ينزل عليهم نعمه لكونها حقاً لهم. فاستجاب الله ﷻ لتوسلات المظلومين المحتقرين، وأحرق جنتي المتكبرين، أعني أنه تعالى كسر شوكة الأمتين اليهودية والمسيحية، متفضلاً على نسل إسماعيل حيث وهب لهؤلاء المحتقرين جنات خيراً من جنتي الذين احتقروهم. وإيضاحاً لهذا الموضوع ذكر بعد تمثيل الجنتين حادث إسراء موسى ﷺ أري فيه رُقيّ أمته مثلما أري النبي ﷺ رُقيّ أمته في حادث إسراءه المذكور في سورة

الإسراء. وقد كشف الله تعالى لموسى عليه السلام من خلال إسرائه طريق رقي أمته، وأين سيتوقف، لتنتقل البركات السماوية من أمته إلى بني إسماعيل. وبعد ذكر خبر انتقال هذه البركات أخبر الله تعالى أن العصاة من أمة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الذين سيتغافلون عن الدين سيعذبهم الله على يد القسم الثاني والمنحرف من الأمة الموسوية، أي على يد يأجوج ومأجوج الذين سيكونون من أتباع النصرانية والذين سينتشرون ويستولون على العالم كله في يوم من الأيام. ولكي يخبر الله تعالى أن هؤلاء القوم لموجودون اليوم،* ولكنه تعالى يمنعهم من الانتشار والازدهار بحكمته الكاملة، قد بين الأسباب الحائلة دون انتشارهم؛ وذكر أن شخصاً باسم ذي القرنين كان سبباً في بقاء يأجوج ومأجوج معزولين عن باقي العالم في تلك الفترة كلها.

وهكذا قد بين الله تعالى الأحداث التي مرت على قسَمي الأمة النصرانية؛ والقسم الأول منها هم أصحاب الكهف الذين هم النصارى الحقيقيون، والقسم الآخر منها أولئك القوم الذين دخلوا في النصرانية فقصوا على الروح التي تحلّى بها أصحاب الكهف، حيث آمنوا بالنصرانية في الظاهر فحسب، ولكنهم في الحقيقة كانوا غافلين عن روح دينهم تماماً.

وفي النهاية أخبر أن الله تعالى سيحطّم فتنة يأجوج ومأجوج بإنزال صنوف العذاب، وسينجي المسلمين عن طريق ذي القرنين الثاني.

وخلاصة القول إن سورة الكهف تتحدث عن فترتين للأمة المسيحية؛ فترة خيرها وفترة شرها، وتخبر أن تأسيس الأمة المحمدية كان مقدرًا بين هاتين الفترتين. وتخبر أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قد جعل لعقاب عصاة المسلمين فئة نصرانية لادينية أي يأجوج ومأجوج، وأن هذه الفئة ستظهر في يوم من الأيام، وستكسر شوكة المسلمين؛ ولكن الله تعالى سوف يجمي الإسلام من فنتهم في آخر المطاف رحمةً منه وفضلاً.

* أي لدى نزول القرآن (المترجم)

هذه هي خلاصة سورة الكهف، أما التفاصيل فنوردها لدى تفسير الآيات. لقد بينت ترتيب مواضع سورة الكهف هذه نظراً إلى صلتها بما قبلها من السور. أما علاقة أوائل هذه السورة بأواخر سورة الإسراء فهي أيضاً واضحة تماماً، حيث قال الله تعالى في آخر الإسراء ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾، بينما قال في مستهل سورة الكهف مبيناً الغاية من نزول القرآن على محمد رسول الله: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً﴾. فختتم تلك السورة بإعلانه أنه لا ولد لله تعالى، بينما بدأ هذه السورة بقوله إن محمداً رسول الله جاء ليعلن عن هلاك القوم الذين اتخذوا لله ولداً.

والعلاقة الثانية تكمن في أن الله تعالى أعلن في أواخر السورة السابقة أن أهل العلم هم أولئك الذين يعبدون الله ﷻ ويوقنون بوعوده، حيث قال ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، بينما أعلن في بداية هذه السورة أن الذين يتخذون لله ولداً لا يستحقون أن يُسمَّوا أهل العلم، فقال ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ وكأنه تعالى بين في السورة الماضية تعريف العلم، أما في هذه السورة فبيّن تعريف الجهل.

والعلاقة الثالثة هي أن الله تعالى أعلن في آخر سورة الإسراء: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، بينما قال في مستهل سورة الكهف أنه أنزل القرآن على محمد ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾.. أي عذاباً شديداً من عنده ﷻ. كأنه تعالى قال لنبيه ﷺ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ مُمْلِكِهِمْ، وَالظَّالِمِينَ بِسَبَبِ الْأَسْبَابِ الْمَادِيَةِ أَنْ لَا أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَى التَّصَدِي لَهُمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، إِنْ الدَّمَارُ يَحِيطُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَبِأَسْبَابٍ لَمْ تَخْطُرْ عَلَى بَالِ أَحَدٍ. فلا يظنوا أنفسهم في مأمن من عذاب الله الذي هو صاحب الملك في الحقيقة.

والعلاقة الرابعة هي أن الله تعالى قال في آخر سورة الإسراء ﴿وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾، بينما قال في بداية سورة الكهف عن الذين اتخذوا لله ولداً ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.. بمعنى أن الكبرياء حق لله تعالى وحده، ولكن هؤلاء يعطون هذا الحق للمخلوق الضعيف ظلماً وزوراً.

وفيما يلي بعض الأحاديث الشريفة التي تؤكد أن الرسول الكريم ﷺ أيضاً قد اعتبر سورة الكهف وثيقة الصلة بالنصارى، وطبقها عليهم.

"عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ" (مسند أحمد مجلد ٦ ص ٤٤٩).

وروى مسلم والنسائي* وأحمد "عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: مَنْ قرأ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ. قال حجاج: العَشْرُ الأَوَاخِرُ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ" (المرجع السابق ص ٤٤٦).

لقد تبين من ذلك أن النبي ﷺ كان على علم بأن هذه السورة تتحدث عن الدجال. ولكن العجيب أنه لم يرد في هذه السورة اسم الدجال. نعم لقد تحدثت في أوائلها عن الذين قالوا اتخذوا لله ولداً، وهذه عقيدة يحملها المسيحيون؛ بينما تحدثت في أواخرها عن القوم الذين سيضلّ سعيهم في الترقيات المادية ليلَ نهار، والذين سينهمكون في اختراع الأشياء الجديدة بحيث يظنون أنهم على وشك اكتشاف سر الكون، لكنهم كلما تقدموا في اكتشافاتهم الجديدة أدركوا أن وراء كل سر من أسرار الكون أسراراً أخرى، وأن لا حدَّ ولا نهاية لقدرة الله تعالى ولا لأسراره. وهذا الأمر أيضاً ينطبق على الأمة المسيحية.

إذاً فمن ناحية نجد أن الآيات الأوائل من سورة الكهف وأواخرها تتحدث عن الديانة المسيحية والترقيات المادية المسيحية، ومن ناحية أخرى نجد الرسول ﷺ يقول إن من قرأ العشر الأوائل والعشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ

* هذا سهو، والصحيح "أبو داود" بدل "النسائي". (المترجم)

الدجال؛ وإذا جمعنا بين الأمرين توصلنا إلى نتيجة مفادها أن النبي ﷺ إنما يعني بالدجال المسيحية المنحرفة نفسها. أما إذا لم نسلّم بهذا الاستنتاج عرّضنا النبي ﷺ لاعتراض بأنه - والعياذ بالله - علّمنا للنجاة من فتنة الدجال آيات لا تمت إلى موضوع الدجال بصلة. وأي شك أنه ﷺ أعظم وأسمى من ذلك.

وتتلخص هذه السورة في أن الله تعالى قد أنزل هذا الكتاب ليُصلح الأخطاء التي تسربت في الكتب السماوية السابقة، ولينذر الذين اتخذوا لله ولداً. إن هؤلاء القوم سيُحرزون رقيّاً مادياً كبيراً، وسيُضمرون للإسلام كراهيةً شديدة. ولكن لم تكن بداية هؤلاء القوم كنهايتهم هذه، إذ كانوا في أول أمرهم ضعيفي الحيلة تماماً، وقد تعرضوا لصنوف التعذيب الشديد، ولكن الله رحمهم، وخلّصهم من المحن والشدائد، وهداهم إلى طريق الزهد. ولكن القوم وقعوا في الشرك بعد أن نالوا الغلبة وازدهروا، ومالوا عن الدين إلى الدنيا مشغوفين بها. فمن واجب المسلمين أن يأخذوا العبرة من أحوال هؤلاء فيأخذوا الحذر من مفاسد ثلاث: التكاسل في العبادة، والإفراط في حب المال، والانغماس في الملذات.

ثم أخبر الله تعالى أن مثل المسلمين وإخوانهم من أهل الكتاب كمثل أخوين أحدهما ثري والآخر فقير. ويتباهى الأخ الثري بثروته، بينما يتجه الأخ الفقير إلى الله تعالى، فيُحطّم رأس الكبر في النهاية، وتتهيأ الأسباب من الغيب وبدون تدخل الناس للقضاء على قوة الأخ الثري.

ثم بيّن الله تعالى تفاصيل هذه التغيرات المستقبلية التي سبق أن أخبر بها موسى عليه السلام خلال إسرائته، وهي أن الرقي الذي ستحققه أمته ضئيل جداً إذا ما قورن برقي أمة النبي القادم ﷺ، وأن ذلك النبي القادم سيكمل الأمور التي ما كان موسى قادراً على استكمالها. فوفقاً لتعبير الإسرائ الموسوي هذا سينتصر الإسلام لدى انحطاط الأمة المسيحية.

ثم تناول الأحداث التي ستلي الفتح الإسلامي، مبيّناً أنه سيأتي على المسلمين زمان سينسّون فيه أمر الدين، فيكتب الله ﷻ الغلبة للأمة المسيحية مرة أخرى عقاباً

للمسلمين، وأن هذه الغلبة المسيحية ستتم على أيدي شعوب حيل بينهم وبين زحفهم على بلاد الشرق والجنوب قبل زمن قليل، وأنه سيحلّ بالدنيا دمار كبير، وستصبح الشعوب كلها تابعة لمعسكرين كبيرين أو لفكرتين أيديولوجيتين متعارضتين، وسيكثر الظلم، وعندها سيهبى الله ﷻ مرة أخرى الأسباب لسد هذا الطوفان الجارف.

كما أشار الله تعالى إلى أن الشعب الذي كسر القوة السياسية ليأجوج ومأجوج مرة في الماضي سيلعب دوراً هاماً في سد هذا الطوفان العظيم ثانية. إذا فسورة الكهف تنتم لسورة الإسراء، والأحداث الواردة فيها ليست عديمة الصلة فيما بينها كما زعم بعض المفسرين، بل هناك ترتيب رائع في مضامينها، كما أن هذه السورة وثيقة الصلة بالسورة السابقة لها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ
عَوَجًا ﴿٢﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ﴿٣﴾ مَّا كَثِيرٌ فِيهِ أُبَدًا ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

عَبْدَهُ: راجعُ شرح الكلمات للآية رقم ٢ من سورة الإسراء.

عَوَجًا: عوج يعوج عوجًا: ضدُّ استقامَ أي انحنى، والاسمُ العَوْجُ. وقيل: العَوْجُ بالفتح في الأجساد، والعَوْجُ بالكسر في المعاني (الأقرب). وعَوْجُ الطريقِ وعَوْجُهُ: زيغُهُ، وعَوْجُ الدينِ والخلُقِ: فسادهُ (تاج العروس).

قِيَمًا: قِيَمُ الأمر: مقيمُهُ؛ وأمرٌ قِيَمٌ: مستقيمٌ؛ وخلقٌ قِيَمٌ: حسنٌ؛ ودينٌ قِيَمٌ: مستقيمٌ لا زيغ فيه؛ وكتبٌ قِيَمَةٌ أي مستقيمةٌ تبيِّنُ الحقَّ من الباطل. القِيَمُ: السيِّدُ وسائسُ الأمر (تاج العروس). وقوله تعالى ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي مقومًا لأُمور معاشهم ومعادهم (المفردات).

لِيُنذِرَ: أَنْذَرَهُ بالأمر: أَعَلَمَهُ وحذَّرَهُ من عواقبه قبل حلوله؛ خوِّفَهُ في إبلاغه، يقال: "أَنْذَرْتُ القومَ سِيرَ العَدُوِّ إِلَيْهِمْ فَنذَرُوا" (الأقرب).

بَأْسًا: البَأْسُ: العذابُ؛ الشدَّةُ في الحرب. وقال ابن سيده: البَأْسُ الحربُ ثم كُثِرَ حتى قيل: "لا بَأْسَ عَلَيْكَ" أي لا خوفَ. والبؤسُ: الفقر (تاج العروس). والبَأْسُ: العذابُ؛ الشدَّةُ في الحرب؛ القوةُ؛ الخوفُ (الأقرب).

يَبَشِّرُ: بَشَّرَهُ: أَخْبَرَهُ ففَرِحَ (الأقرب).

مَآكِثِينَ: مَكَثَ بِالْمَكَانِ يَمْكُثُ مَكْثًا: لَبِثَ وَأَقَامَ، فَهُوَ مَآكِثٌ وَجَمْعُ مَآكِثُونَ (الأقرب).

أَبَدًا: الأبد: الدهر؛ الدائم؛ القديم؛ الأزلي (الأقرب). والأبد: عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ (المفردات). ومعنى "مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ" زمان غير محدد.

التفسير: المراد من قوله تعالى ﴿قِيَمًا﴾ أن هذا الكتاب جاء مقومًا للكتب الماضية حيث يصلح الأخطاء الواردة فيها. كما يعني أن هذا الكتاب سيّد على الناس وسائس لأموهم، أي يقوم بتربية الموجودين منهم واللاحقين، حيث يبين لهم الأعمال التي يجب أن يعملوها؛ كما هو مهيمن على السابقين أي يفصل في أمورهم. إذا فكلمة ﴿قِيَمًا﴾ ليست حالاً، بل وردت صفةً للكتاب لتشمل الماضي والمستقبل.

أما قوله تعالى ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ فالبأس هنا بمعنى العذاب والفرع. وأما قول الله تعالى ﴿وَيَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ فاعلم أن ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ لا يعني الجوائز العادية، لأن هذا المعنى متضمن في كلمة "الأجر" وحدها؛ وقد وردت كلمة "الأجر" في القرآن الكريم مجردة عن "الحسن" مراراً، كقوله تعالى في هذه السورة نفسها ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الآية: ٣١). لا جرم أن الأجر في مثل هذه الأماكن يعني - نظراً إلى سياق الكلام - الجزاء الجيد على العموم؛ ولكن قوله تعالى ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ يعني أكثر من ذلك، وهو أن هذا الأجر سيأتي بالنتائج الحسنة، فلن يفسد المؤمنون نتيجة هذه النعم، بل سيحسنون استخدامها لينالوا مزيداً من الثواب.

وقوله تعالى ﴿مَآكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ إذا كان خاصاً بالنعم التي سوف ينالها المؤمنون في الدنيا، فليس المعنى أن هذا الأجر لن ينقطع أبداً، بل المراد أنهم سينالون أجرهم

حتمًا ما داموا مؤمنين. أما إذا كان خاصًا بالنعم الأخروية فالمعنى أنهم سيتمتعون بنعم الآخرة باستمرار دون أن تنقطع عنهم أبدًا. هذه الجملة تنبيه رباني للمؤمنين أنهم إذا أرادوا أن تدوم أفضال الله عليهم فيجب أن لا يدعوا إيمانهم يضيع أبدًا.

وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٦﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ
عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

وَلَدًا: الولد: كل ما ولده شيء، ويُطلق على الذكر والأنثى (الأقرب)، وقد ورد هنا بمعنى الولد الذَّكَر.

كَلِمَةً: كل ما ينطق به الإنسان مفردًا كان أو مركَّبًا (الأقرب).

كَذِبًا: كذب الرجل كَذِبًا وَكَذِبًا: أخبر عن الشيء بخلاف ما هو مع العلم به، ضدُّ صدق، وسواء فيه العمد والخطأ (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن الغاية الثانية لهذا الكتاب هي أن يحذّر أولئك الذين زعموا أن الله تعالى اتخذ ولدًا.

من المستغرب أنه تعالى قال من قبل إن من أهداف الكتاب الإنذار، ثم تبشير المؤمنين، ويقول الآن مرة أخرى إن من أهدافه الإنذار، وأن هذا الإنذار خاص بالذين اتخذوا لله ولدًا. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لم لم يجمع الله الإنذارين في المرة الأولى ليذكر بعدهما البشرى للمؤمنين؟

والجواب أن القرآن الكريم يقصد بهذا الترتيب الإشارة إلى أزمنة مختلفة. فالإنذار الأول كان خاصًا بأهل مكة وبجميع تلك الشعوب التي كانت تناوى الإسلام في

عهد الرسول الكريم ﷺ، وبالفعل هلكت تلك الأمم نتيجة ذلك الإنذار. ثم نال المؤمنون النعم بعد هلاك مناهضي الإسلام وفقاً للتبشير الذي ذكر بعد هذا الإنذار، وحكم المسلمون العالم لقرون طويلة طبقاً لوعده الله تعالى ﴿ما كُتِبَ فِيهِ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ إِلَّا لَعَلَّ الْإِنْسَانَ يَأْخُذَ بِالْبَاطِلِ أَعْظَمَ لِلْإِنْسَانِ لَا إِيمَانًا بِهِ﴾. ثم جاء الإنذار الثاني الخاص بالمسيحيين وحدهم، وكان فيه إشارة إلى أنه بعد ازدهار الإسلامي ستقوى المسيحية ثانية، وتستولي على العالم حتى يتراءى للناس أنه لم يبق في الدنيا أمة معادية للإسلام سوى المسيحية؛ وعندها سيصبح الإنذار القرآني موجَّهاً إلى المسيحية خاصَّةً. أما إذا لم يفصل القرآن بين الإنذارين بذكر بشارة للمؤمنين بينهما لم يمكن فهم هذه الإشارة اللطيفة التي تحدد موعد العذاب القادم والتي تخبر عن التغيرات السياسية في المستقبل.

أما قوله تعالى ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ فاعلم أن ﴿كَلِمَةً﴾ هنا تمييز، والتقدير: كُتِبَتْ هي كلمة، والمعنى: أن قول هذا الشيء كبير، أو بتعبير آخر: التفوه بهذا الكلام أمر خطير جداً كما أنه مخالف للعقل. وقد أشار بذلك إلى أن هذه العقيدة كما هي تمثل إساءة كبيرة إلى الله تعالى كذلك هي مرفوضة من قبل العقل الإنساني، إذ كيف يمكن أن يُصلب إنسان ومع ذلك يُدعى ابناً لله تعالى.

لقد وجه القرآن إلى المسيحية هنا - بالإضافة إلى الإنذار - ضربة قاضية حيث قال: ﴿إِنَّمَا يَتَّخِذُونَ لِلَّهِ الْعِزِّيمَ ابْنًا مِنْ دُونِ أَنْ يَمْلِكُوا لَهُمْ وَلَا آبَاءُ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ دَلِيلًا﴾، بمعنى أن آباء المسيحيين كانوا على علم أن المسيح وحوارييه وتلاميذهم كانوا موحدين، وأن الشرك قد جاء فيما بعد، ومع ذلك جعلوا المسيح ابناً لله ﷻ؛ فجاءهم القرآن الكريم بعقيدة التوحيد الأسمى، قاضياً على الأفكار الوثنية بالبراهين الدامغة؛ ولكن يا أسفاه، لا الآباء انتفعوا بما رأوه بأعينهم، ولا الأولاد انتفعوا بالأدلة التي قدمها القرآن الكريم، بل ترك كلا الفريقين ربهما، واتخذوا الإنسان إلهاً دونما برهان أو دليل.

وأخبر بقوله ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أن المسيح نفسه كان منكرًا مثل هذه البُنية، إذ ليس في الأناجيل الموجودة ما يدل على أن المسيح ابن الله تعالى. لا شك أنه قد

وردت في الأناجيل كلمة "ابن" في حق المسيح عليه السلام، ولكن ليس للمسيح أية خصوصية في ذلك، إذ وردت هذه الكلمة في حق أناس آخرين أيضاً، فجاء على سبيل المثال: "يقول الرب: إسرائيل ابني البكر" (خروج ٤: ٢٢).

فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِن لَّمَّ يُؤْمِنُوا بِهَذَا

الْحَدِيثِ أَسْفًا ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

لَعَلَّ: طَمَعٌ وإشفاق.... و"لعل" وإن كان طمعاً فإن ذلك يقتضي في كلامهم تارة طمع المخاطب، وتارة طمع غيرهما. فقوله تعالى فيما ذكر عن قوم فرعون: ﴿لعلنا نتبع السحرة﴾ فذلك طمع منهم، وقوله في فرعون: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ فإطماع موسى عليه السلام مع هارون، ومعناه: فقولا له قولاً لئنا راجين أن يتذكر أو يخشى. وقوله تعالى ﴿فلعلك تاركٌ بعض ما يوحى إليك﴾ أي يظن بك الناس ذلك (المفردات).

بَاخِعٌ: بَخَعَ نَفْسَهُ: قَتَلَهَا مِنْ وَجَدٍ أَوْ غِيظٍ (الأقرب). بَخَعَ نَفْسَهُ: قَتَلَهَا غَمًّا. وَبَخَعَ بِالْحَقِّ بَخُوعًا: أَقْرَبَ بِهِ وَخَضَعَ لَهُ. وَبَخَعَ لَهُ نُصَحَهُ أَيْ أَخْلَصَهُ وَبَالِغٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ﴾ أَيْ مَهْلِكُهَا مَبَالِغًا فِيهَا حِرْصًا عَلَىٰ إِسْلَامِهِمْ (تاج العروس).

آثار: الأثر: ما بقي من رسم الشيء (الأقرب).

أَسْفًا: أَسْفَى يَأْسِفُ أَسْفًا: حَزِنَ أَشَدَّ الْحَزْنَ وَتَلَهَّفَ (الأقرب).

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أن قلب رسوله صلى الله عليه وسلم كما أصيب بصدمة كبيرة عند تلقي نبا دمار اليهود (النحل: ١٢٨)، كذلك حزن أشد الحزن لدى تلقي خبر هلاك الأمة المسيحية أيضاً؛ فيواسي رسوله صلى الله عليه وسلم حتى قبل حلول هذه الصدمة قائلاً

له: لدى سماع خبر هلاكهم ستصاب بصدمة شديدة تكاد تقضي عليك أسفاً عليهم، فعليك بالصبر لأن هذه هي مشيئة ربك.

علمًا أن القرآن الكريم لا يتحدث هنا عن المشركين الآخرين، بل عن المسيحيين فقط، وأن خبر العذاب الذي جعل النبي ﷺ يحزن لهذه الدرجة لم يكن إلا عن المسيحيين. إذاً أليس غريباً أن نجد النبي ﷺ يكاد يهلك نفسه حزناً على سماع خبر العذاب الذي سيصيب الأمة المسيحية بعد ١٣ قرناً، وعلى النقيض نجد بعض الكتّاب المسيحيين لا يرحون بسبّون محسنهم هذا ﷺ ويشتمونه ليلَ نهار؟! وأشار بقوله تعالى ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ إلى أن القرآن يشكّل بنفسه الدليل على صدقه، حيث يتضمن الحلول للمشاكل التي ستواجه الشعوب المسيحية في المستقبل، فمن الطبيعي أن تصاب، يا محمد، بالصدمة الشديدة حيث لن ينتفع هؤلاء - بالرغم من تقدمهم المدهش في الأمور المادية - بهذه الحلول القرآنية، بل سيرفضونها فيهلكون.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أنه جعل في الدنيا ملايين الأشياء كي يطلع عليها الإنسان وينتفع بها. ذلك أن في كلمة "زينة" إشارة إلى أنه ليس في الدنيا شيء بدون فائدة، بل كل شيء ذو منفعة حتمًا. أما لو قال الله تعالى: "بعضها زينة"، لكان هناك احتمال كون بعضها مفيدًا وبعضها من دون جدوى، ولكنه تعالى قد وصف كل الأشياء بالزينة، إذاً فالنظرية الإسلامية عن الأشياء تعلن أن في كل شيء نوعًا من النفع والزينة أي أنه يزيد الدنيا نفعًا وجمالاً.

الأسف أن المسلمين تغافلوا بمرور الأيام عن الانتفاع بهذه الحكمة القرآنية، ولم يهتموا بالبحث والاختراع كما يجب، بينما عمل الأوروبيون بهذه الحكمة القرآنية رغم رفضهم للقرآن، فتقدموا في مجال العلوم تقدماً جعلهم غالبين على العالم كله. أما قوله تعالى ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ فهو إشارة إلى أنه تعالى خلق الأشياء ليقوم الناس بالبحوث في شأنها، ويستفيدوا بما لإصلاح حال الإنسانية. ولكن الشعوب المسيحية قد قصروا في هذا المجال حيث عملوا على التنقيب عن خواص الأشياء وأسرارها، ولكن لم يقدموا نموذجاً جيداً في استغلالها من أجل إصلاح حال بني آدم، بل وضعوا بهذا التقدم العلمي أساساً للظلم والفساد في الدنيا. وأرى أن هذه الآية تتضمن الإشارة إلى تصرفهم هذا أيضاً.

وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

صَعِيدًا: الصعيد: التراب، وقيل: وجه الأرض تراباً كان أم غيره؛ المرتفع من الأرض، وقيل: هو ما لم يخالطه رمل ولا سبخة؛ الطريق؛ القبر (الأقرب). يقال: صارت الحديقة صعيداً: أي أرضاً مستوية لا شجر فيها (المنجد).

جُرُزًا: جرزه يجرُز: قطعه. وجرز الزمان زيداً: اجتاحه. والجُرُزُ والجُرُزُ: الأرض لا تُنبت، أو أُكِلَ نباتها، أو قُطِعَ (الأقرب). قال عَنكَ: صعيداً جُرُزاً أي منقطع النبات (المفردات). ويقال للحديقة إذا خربت وذهب شجراؤها: قد صارت صعيداً أي أرضاً مستوية لا شجر فيها (تاج العروس).

التفسير: يبين الله تعالى هنا أن المتع الدنيوية ليست حقيقية، بل هي متع عابرة قد جعلها الله تعالى سبباً للتسابق بين الشعوب حتى يسخرُوا هذه الأشياء في خدمة البشرية وينالوا الثواب من الله تعالى. ولكن الشعوب المسيحية لن يحققوا هذا الغرض، لأنهم سيقومون بالبحث عن خواص الأشياء، وبدلاً من أن يتخذوها

ذريعة للعمل الحسن سيسخرونها لخلق النزاعات والحروب. ولما كان الهدف من خلق الأشياء أن تكون زينة للعالم، فإن بحوثهم ومخترعاتهم لن تعمل على تحقيق هذا الهدف، لذا سوف يدمر الله أعمالهم تدميراً. فهذه الآية إذاً لا تتنبأ عن دمار الدنيا كلها، بل تتنبأ عن دمار أعمال الذين اتخذوا الله ولداً.

هذا، وفي قوله تعالى ﴿صعيداً جُرُزاً﴾ إشارة لطيفة إلى تمثيل الجنتين الذي ستحدث عنه هذه السورة بعد قليل في الآيات رقم ٣٣ إلى ٤٥. ذلك أن الصعيد هي الأرض التي قُطِعَ نباتها حيث يقال للحديقة إذا خربت وذهب شجرها: قد صارت صعيداً أي أرضاً مستوية لا شجر فيها؛ كما أن كلمة الجُرُز أيضاً تعني الأرض المنقطع نباتها. وفي تمثيل الجنتين ينصح الأخ الناصح أصحاب الجنة المتكبرين ألا يتباهوا بجنّتهم، حتى لا يحول العذاب النازل من السماء جنّتهم صعيداً زَلَقاً. فنجد أن كلمة ﴿صعيداً﴾ قد وردت في الآيتين، بينما استبدلت كلمة ﴿زَلَقاً﴾ بكلمة ﴿جُرُزاً﴾، ولكن معناهما واحد. وهذا يدل على أن تمثيل الجنتين الآتي ذكره بعد قليل يخص المسيحيين أيضاً، وأن الله ﷻ سيدمر جناتهم التي زرعوها.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا

عَجَبًا

شرح الكلمات:

الكهف: كالبيت المنقور في الجبل، وجمعه كهوف، إلا أنه واسع، فإذا صُعِرَ فهو غار. الكهف أيضاً الوزر؛ الملجأ (الأقرب).

الرقيم: رَقْمٌ يَرْقُمُ رَقْمًا: كَتَبَ. وَرَقْمُ الْكِتَابِ: أَعْجَمَهُ وَبَيَّنَّهُ. وَرَقْمُ الثَّوْبِ: حَطَّطَهُ وَأَعْلَمَهُ. وَالرَّقِيمُ الْكِتَابُ؛ وَالرَّقِيمُ الْمَرْقُومُ (الأقرب).

فأصحاب الرقيم هم القوم الذين كانوا يكتبون ويرسمون. وقد قال بعض المفسرين: هم الذين كانوا يحفرون في الحجر والحديد (الطبري، وأقرب الموارد)،

وعليه فالمراد من أصحاب الرقيم قوم كانوا يكتبون على الأحجار والورق أو يرسمون عليها ويصوّرون.

وبما أن الرقيم يعني الشيء المرقوم أيضاً فيعني أصحاب الرقيم قوم كانت عندهم أشياء مرقومة أي الكتب واللوحات وما إلى ذلك مما يُكتب عليه.

عَجَبًا: العجب: إنكار ما يرد عليك؛ استطراف الشيء؛ روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء (الأقرب).

التفسير: إنه لمن المضحك المبكي أن الله تعالى يصرح هنا أن أصحاب الكهف ليسوا من العجائب، بل كانوا آيةً كغيرها من آيات الله ﷻ، ولكن المسلمين يقدمونهم كأعجوبة من العجائب.

إِذْ أَوْىَ الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً

وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

أَوْى: أوى إلى منزله وأوى منزله: نزل به ليلاً أو نهاراً (الأقرب).

الفتية: جمع الفتى وهو الشاب الحداث؛ السخي الكريم (الأقرب).

رحمة: الرحمة رقة القلب وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان والمغفرة (الأقرب).

التفسير: اعلم أن الرشد هو الهداية، ولكن الرشد يقال في الأمور الدنيوية والأخروية، بينما الرشد يقال في الأمور الأخروية لا غير (الأقرب)، وعليه فدعائهم هذا يعني: اللهم افتح لنا طريق الخروج من محنتنا وباب الفلاح في أمرنا.

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ: ضَرَبَ عَلَى أُذُنِهِ: مَنَعَهُ أَنْ يَسْمَعَ (الأقرب).
التفسير: يقول الله تعالى: منعناهم من سماع أخبار الناس بإبقائهم في الكهف لسنين، فلم يعرفوا حال أهل زمانهم.
 وسأذكر أحوال أصحاب الكهف مفصلة لدى تفسير الآيات القادمة.

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

بَعَثْنَاهُمْ: بعثه بعثاً: أرسله؛ أثاره وهيجه. بعث الموتى: أحياهم. بعثه على الشيء: حمّله على فعله (الأقرب).

الحزبين: مثني الحزب وهو الطائفة؛ جماعة الناس؛ جنود الرجل وأصحابه الذين على رأيه؛ النصيب؛ كل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب وإن لم يلق بعضهم بعضاً (الأقرب).

أَمَدًا: الأمد: الغاية والمدى. الأمد والأبد يتقاربان، لكن الأبد عبارة عن مدّة الزمان التي ليس لها حد محدود ولا يتقيد... والأمد مدّة لها حد مجهول... والفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عام في المبدأ والغاية، ولذلك قال بعضهم: المدى والأمد يتقاربان (المفردات).

التفسير: من هم أصحاب الكهف؟ وأين كانوا؟ وما هي أحوالهم؟ هذا سؤال بالغ الأهمية، وما زال مثار فضول المفسرين على مر القرون. وللإجابة عليه أسجل أولاً بعض ما ذكره المفسرون القدامى بهذا الصدد من روايات.

الرواية الأولى: قال صاحب روح المعاني: نبؤهم حسبما ذكره المؤرخ الشهير ابن إسحاق وغيره أنه لما تفشى الشرك بين المسيحيين وعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت أزعج ذلك الموحدّين منهم. وكان أحد ملوك المسيحيين - واسمه دقيانوس، وفي رواية دقيوس - يقتل النصرى الموحدّين. فألقى الشرطة القبض

على فتية من هؤلاء الموحدين الذين كانوا من عظماء مدينتهم التي اسمها أفسوس، وفي بعض الروايات طرسوس. ولما أحضروهم إلى الملك عنّفهم على عدم سجودهم للأصنام، ولكنهم تمسكوا بالتوحيد. فأمرهم الملك للمزيد من التفكير والتأمل، فاغتنموا الفرصة وفروا واختفوا في غار اسمه بنجلوس، واشتغلوا هنالك في العبادة، واختاروا أحداً منهم، واسمه يملیخا، ليحضر لهم الطعام من المدينة. فكان يدخل المدينة متنكراً ويأتي بالطعام. فعلم في يوم من الأيام أن الملك قد رجع إلى المدينة بعد أن خرج منها لبعض المهام، وأنه أمر بإحضار الفتية. فأسرع هذا إلى أصحابه باكيًا وبلغهم الخبر. ففرغوا إلى الله تعالى وبكوا، ولما فرغوا من دعائهم ضرب الله على آذانهم وناموا، ونفقتهم ومتاعهم بجنبهم، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. فخرج الملك في طلبهم، ولكن لم يستطع أحد من رجاله أن يدخل الكهف. فقال أحد رجاله: أيها الملك، أليس لو قدرت عليهم قتلتهم؟ قال: بلى. قال: ابن على باب الكهف جداراً وتسده، ودعهم يموتوا جوعاً وعطشاً. ففعل. ثم كان من شأنهم ما قص الله تعالى في الآيات التالية (انظر روح المعاني).

الرواية الثانية: أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن وهب بن منبه قال: أن واحداً من حواربي المسيح عليه السلام كان في سفر، فجاء إلى مدينة كان ملكها يعبد الأصنام، وكان من أوامره أن لا يدخل المدينة أحد إلا بعد السجود لصنم منصوب على بابها. ولكن الحواربي كره أن يدخلها، فأتى حماماً خارج المدينة وأقام فيه، وأخذ يبشر؛ فصدقه عديد من الناس. حتى جاء ابن الملك بامرأة فاحشة يدخل بها الحمام، فنصحه الحواربي، فرجع في ذلك اليوم. ولكنه عاد مرة أخرى، فنهزه الحواربي، فلم يلتفت إليه ودخل الحمام مع المرأة، فباتا في الحمام، ووجد في الصباح ميتاً. فقيل للملك: قتل ابنك صاحب الحمام. فبدأ الملك التحقيق، وفرّ صاحب الحمام وأصحابه جميعاً مع فتية دخلوا في المسيحية، ومروا على صاحب لهم في زرع له وهو على مثل أمرهم، فأخذهم إلى غار حيث اختفوا فيه. ولما

بلغ ذلك الملكَ خرج لإلقاء القبض عليهم. وبعدها تقول الرواية نفس ما ورد في الرواية السالفة. (المرجع السابق).

الرواية الثالثة: أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف. فبعث رجلاً فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف، فانظروا. فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم رجلاً فأخرجتهم (الدر المنثور).

وفي رواية أن ابن عباس قال إنه رأى عظام أصحاب الكهف، وكانت عمرها ثلاث مائة سنة (الدر المنثور)*.

وفيما يتعلق بمصيرهم فقد وردت في التفاسير الروايات التالية:

سلط الله ﷻ على أصحاب الكهف النوم دهرًا طويلًا، ثم بعثهم. فأرسلوا أحدًا منهم ليأتي لهم بالطعام. فذهب ودفع إلى صاحب المحل الدرهم، فلما رأى الدرهم تحير وأنكره لأنه درهم قديم، ودفعه إلى جاره، فتحيروا جميعًا وظنوا أنها عملة بلد أجنبي. فوصل الخبر إلى الملك الذي اسمه يندوسيس، فلما سمع حكايته ذهب معه إلى الكهف، فسلم الملك على أصحاب الكهف وعانقهم، وتكلم معهم لبعض الوقت، ونصحوه. ثم عادوا إلى مضاجعهم وماتوا فورًا (ابن كثير، وروح المعاني).

وفي رواية أنه لما وصل الملك وأصحابه إلى باب الكهف مات أصحاب الكهف جميعًا، فلم يستطيعوا أن يروهم أحياء، وأن الذي ذهب ليأتي بالطعام أيضًا مات بعد وصوله هناك (الدر المنثور، وتفسير ابن أبي حاتم).

والحادث الذي جاء فيه اسم "وقيس" في المصادر المسيحية أيضًا. يقول المؤرخ الإنجليزي الشهير "غبين" (Gibbon) إن قصة النائم السبعة كتبها القس غريغوري (Gregory) من مدينة طورس، وأرى تسجيلها هنا ضروريًا. كانت هذه القصة

* ونص الرواية: "غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بالكهف، فإذا فيه عظام، فقال رجل: هذه عظام أهل الكهف. فقال ابن عباس: ذهبت عظامهم أكثر من ثلاث مائة سنة. وفي رواية: بليت عظامهم منذ أكثر من ثلاث مائة سنة" (الدر المنثور، وابن كثير).

شهيره بين المسيحيين السوريين، وقد أخذها غريغوري منهم. والقصة التي ذكرها "غبن" تشبه لحد كبير الرواية التي ذكرها ابن إسحاق، حيث تقول: إن فتياناً مسيحيين من عظماء مدينة أفسيس تعرضوا لاضطهاد الملك "وقيس"، فاختفوا في الغار، فسد الملك باب الغار، فأنامهم الله لمدة ١٨٠ سنة. ثم إن غلماناً لـ أيدوليس، وهو صاحب المنطقة التي فيها الغار، أزالوا الأحجار عن باب الغار لبعض حاجاتهم، ولما دخلت فيه أشعة الشمس أحياهم الله تعالى. فلما انتبهوا ظنوا أنهم لم يناموا إلا ساعات. فأحسوا بالجوع، وأرسلوا أحداً منهم واسمه جيمبليكس إلى المدينة ليأتي لهم بالطعام. فوجد المدينة قد تغيرت معالمها، ووجد على بابها صليلاً، فأخذت منه الحيرة كل مأخذ. ولما قدم الدراهم للخباز أنكر هيئته ودراهمه وتحير، وظن أن هذا قد عثر على كنز، فأخذه إلى القاضي. فلما سمعوا منه القصة ذهب الملك ثيودوسيس مع حاشيته إلى الكهف، فباركهم أصحاب الكهف، وقصوا عليهم القصة، ثم ماتوا (ازدهار حكومة روما وسقوطها المجلد الأول ص ١٩٧).

ويقول العلامة أبو حيان: يوجد بالقرب من قرية "الوشة" بالأندلس كهفٌ فيه موتى، ومعهم كلبٌ، ويزعم الناس أنهم أصحاب الكهف. قال ابن عطية: دخلت إليهم فرأيتهم منذ أربع وخمسة مائة عام وهم بهذه الحالة (البحر المحيط). ويضيف قائلاً: وعلى مقربة من غرناطة آثارٌ مدينة قديمة يقال لها مدينة "دقيوس"، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها (المرجع السابق).

وقد ذكر المفسرون أسماء أصحاب الكهف مروية عن ابن عباس كالآتي: مكسلمينا ويمليخا ومرطونس وكسطونس وبيرونس ودينيموس ويطبونس وقالوش (ابن كثير).

وهناك روايات شتى عن الرقيم أيضاً. فقال البعض: الرقيم لوحٌ من رصاص أو حجرٌ كتبت فيه أسماءهم. بينما قال الآخرون: الرقيم هو شرعهم؛ هو مدينتهم؛ هو كلبهم؛ هو درهمهم؛ هو واديههم؛ هو الصخرة التي على الكهف (القرطي).

كما نقل المفسرون روايات كثيرة أخرى تتحدث عن أحوال كلبهم، حتى قيل: ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم. وبعد نقل مثل هذه الروايات يكتب صاحب "فتح البيان": "ولا أدري أي تعلق لهذا التدقيق والتحقيق بتفسير الكتاب العزيز، وما الذي حملهم على هذا الفضول الذي لا مستند له في السمع ولا في العقل" (فتح البيان).

لقد ثبت من هذه الروايات الواردة في كتب المسلمين والمسيحيين أن قصصاً ماثلة لقصة أصحاب الكهف كانت شائعة بين الناس قبل بعث النبي ﷺ، ولكنها، كما يعلن القرآن الكريم، تختلف وتتضارب لدرجة لا يمكن معها الاعتماد عليها، إذ قد اختلط فيها الغث مع السمين.

بعد نقل آراء المفسرين القدامى أسجل الآن البحث الذي قام به حضرة المولوي نور الدين الخليفة الأول لمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام. يرى حضرته أن أصحاب الكهف هم جماعة من النصارى الأوائل الموحدين. وقد سافر هؤلاء إلى بلد آخر فراراً من الشرك المتفشي في وطنهم، وعاشوا هنالك خاملين الذكر لمدة طويلة، حتى كتب الله لهم الازدهار، ونشرهم في العالم. وهذا الحادث إشارة إلى السفر الذي قام به يوسف آرميتيا مع أصحابه إلى إنجلترا، حيث بنى أول كنيسة مسيحية. (حقائق الفرقان مجلد ٣ ص ٤٠٣)

ويشير حضرته عليه السلام هنا بالتحديد إلى الرواية الشهيرة في إنجلترا منذ قرون والتي تقول بأن الحوارى فيليب بعث يوسف آرميتيا مع أشخاص آخرين إلى إنجلترا لتبليغ دينهم. فبنوا هنالك كنيسة في مكان اسمه Glastonbury، وبدؤوا بالتبشير بالمسيحية. (الموسوعة البريطانية الطبعة الحادية عشرة كلمة Glastonbury).

هذه القصة مسجلة في كتاب "تاريخ كنيسة Glastonbury" الذي ألفه عام ١١٢٥ الميلادي William القاطن في منطقة Malmesbury. ولكن القصة لا توجد في النسخة التي كتبها William بيده، بل كل ما قال فيه هو أنه يتضح من الروايات الموثوق بها أن البابا بعث في عام ١٦٦٦ الميلادي إلى إنجلترا بعض المبشرين

بناءً على طلب من الملك الإنجليزي Lucius، وأن هؤلاء بنوا هذه الكنيسة. ويضيف William أن تاريخ هذه الكنيسة أقدم من ذلك بحسب إحدى الروايات، ولكني لا أستطيع تصديقها.

وبعد وفاة William لما أعدت نسخة أخرى لكتابه هذا ألحقت به القصة المذكورة من قبل. وهذا يعني أن القصة ملفقة أضيفت إلى الكتاب الأصلي فيما بعد من قبل شخص آخر من دون أن يذكر لها سنداً.

أما الكهف فكان المراد منه في رأي حضرة المولوي نور الدين رحمته الله ذلك الرأس (Cape) الموجود على الساحل على مقربة من Glastonbury. ولكني لا أتفق مع رأي حضرته لأن هذه الكلمة الإنجليزية مأخوذة من الكلمة الفرنسية (Cap) واللاتينية (Caput)، التي تعني الرأس. ولكن كلمة الكهف العربية تعني الغار الواسع في الجبل أو الأرض الحجرية، ولا علاقة لها بـ (Cape) التي يذكرها الجغرافيون، والتي تعني الرأس، كالرأس الشهير بالهند باسم "رأس كماري".

أما ما قاله رحمته الله إن أصحاب الكهف هم يوسف آرميتيا وأصحابه الذين سافروا إلى إنجلترا فلا أتفق معه أيضاً، لأن قصة سفر يوسف آرميتيا ملفقة حيث اشتهرت في إنجلترا بعد الميلاد بأحد عشر قرناً وربع قرن بعد أن ألحقت أول مرة بكتاب William بعد وفاته من قبل شخص مجهول. والسكوت في مثل هذه الأمور يبعث على الشك والريبة، فما بالك عن هذه القصة التي لا نجد عنها أية رواية إلا بعد مرور أكثر من ألف عام. فلو أن شخصاً قام اليوم وعزا إلى النبي صلى الله عليه وسلم - بناء على ما سمع من الناس - رواية جديدة لم ترد في أي مصدر من كتب الحديث أو التاريخ، فلن يصدقه أحد ما لم يقدم الشواهد التاريخية التي تضع هذه الرواية في سلسلة الوقائع الثابتة الأخرى بحيث لا يسع أحداً إنكارها.

ثم إن رواية كهذه يجب أن تكون مفخرة لأهل إنجلترا، وإن تصديق مثل هذه الروايات الملفقة ينفعهم، ولكننا نجدهم اعتبروا هذا الأمر غلطاً بعد التحري والبحث. فقد عثروا بعد وفاة وليم هذا على مستندات قديمة عن هذه الكنيسة

توصلوا بقراءتها إلى أن الكنيسة بُنيت قبل وليم بثلاث مائة وخمسين سنة على الأكثر أي في حدود القرن الثامن الميلادي على أسحى تقدير. ثم إن هذه المستندات أيضاً لا تتضمن أية إشارة إلى تلك الرواية. ومن أجل ذلك قال المؤرخون الإنجليز عن مضمون هذه الرواية: "إنه ليس حدثاً تاريخياً، بل هو ضرب من خيال الشعراء." (الموسوعة البريطانية الطبعة الرابعة عشرة كلمة Josef of Artmathia)

بعد الإشارة إلى هذه الاختلافات البسيطة المتعلقة بتحديد الأفراد والمكان لا أملك إلا أن أعترف أن التحقيق الذي قدمه حضرة مولانا نور الدين رحمته الله حول الصلة بين أصحاب الكهف والأحداث التاريخية لأمر لا يقدر بثمن، وإنه نبراس للهداية، وبدون الضوء الذي سلطه حضرته على هذا الموضوع يستحيل حل هذا الجزء من القرآن الكريم من الناحية التاريخية. جزاه الله أحسن الجزاء.

والتفسير الذي سأقوم به مبني، إلى حد ما، على التحقيق الذي قام به حضرته رحمته الله ما عدا بعض الاختلافات الجزئية المتعلقة بالمكان والزمان والشعب. غير أن هناك أمراً لم يرد في بحثه رحمته الله، ولكنه وثيق الصلة بالهدف الأساسي لهذه الآيات، وقد لفت إليه انتباهنا سيدنا المسيح الموعود عليه السلام. هذا الأمر هو أن هذه الآيات تتضمن النبأ عن نزول المسيح الموعود حيث أخبر الله تعالى فيها أنه سيأتي على جماعة من المسلمين ما أتى على أصحاب الكهف (المفوضات مجلد ٧ ص ٤٠٣).

بعد هذه الأمور التمهيدية أسجل فيما يلي بحثي حول أصحاب الكهف. لما رأيت أن الحكاية عن سفر يوسف آرميتيا لا تخرج عن كونها قصة باطلة بدأت المزيد من البحث. وأثناء بحثي هذا جاءني نسيبي المرحوم الدكتور خليفة رشيد الدين بكتاب، وقال: إن الأحداث المذكورة في هذا الكتاب تشبه أحوال أصحاب الكهف. واسم الكتاب هو "سرايب الموتى بروما" (Catacombs of Rome). ولما قرأته رأيت أننا نستطيع أن نستفيد منه كثيراً في بحثنا عن أصحاب الكهف. وفيما يلي ملخص محتوياته:

لم يكن المسيحيون الأوائل مشركين، والدليل عليه تلك السرايب التي عثروا عليها بالقرب من روما حيث كان المسيحيون الأوائل يختفون فيها فارين من اضطهاد الحكومة الرومانية. لقد عثروا في هذه السرايب على كثير من اللوحات التي دُوّنت فيها أحوال ذلك الزمن. ويتضح منها أن المسيحية في بدايتها كانت خالية من أي أثر من الشرك، وأن هؤلاء آمنوا بالمسيح عليه السلام بصفته نبياً مخلصاً

فحسب. واستمر الاضطهاد الروماني، طبقاً لهذا الكتاب، لقرون، وكان هؤلاء يلوذون بهذه السرايب كلما تشتد وطأة الاضطهاد حيث كانوا يخزنون فيها المؤن خفية ويعيشون عليها، وفي بعض الأحيان ظلوا محتفين داخل تلك السرايب لسنوات عديدة. وفي الأخير وبعد مرور ثلاثة قرون لما اعتنق أحد الملوك الرومان المسيحية زالت هذه المظالم عن هؤلاء المسيحيين. ثم إن شعب "غاث" هاجموا مدينة روما ودمروا هذه السرايب بعد أن سلبوا ما فيها، فانمحي ذكر هذه السرايب شيئاً فشيئاً، ولكن بعض علماء الآثار عثروا عليها خلال بحثهم عن أنقاض مدينة روما؛ وهكذا حصل العالم على هذه المادة التاريخية الخفية مرة أخرى بعد ألف سنة.

وبقراءة هذا الكتاب أدركت أن تفاسيرنا قد حوت دونما شك الكثير من الغث والسمين، ولكن نظراً إلى الأحداث المذكورة في هذا الكتاب لا يجوز لنا القول إن كل ما ورد في التفاسير لا يمت إلى الحادث الحقيقي بصلة.

ولما أعدت النظر في ما ورد في التفاسير وجدت أن الروايات الثلاثة التي سجلتها آنفاً - إحداها من ابن إسحاق والاثنتان من كتب الحديث - تنطوي على بذرة الصدق والحق. ولو أن القارئ أعاد قراءة هذه الروايات مرة لأدرك أنها تحوي الأمور التالية: ١- أن هذا الحادث وقع بالأمة المسيحية. ٢- أن هذه المظالم صبت عليهم من قبل الرومان. ٣- تقول إحدى هذه الروايات إن هذا الحادث وقع لما وصل أحد الحواريين إلى عاصمة الملك الروماني. ٤- بينما تقول رواية أخرى أن حادث أصحاب الكهف وقع في زمن الملك دقيوس الشهير عند العرب والهنود باسم دقيانوس والذي اسمه اللاتيني Decuis؛ وأن بعض المسيحيين لاذوا بالغار خوفاً من بطشه. ٥- وكل الروايات متفقة على أن الأمة الظالمة كانت وثنية. ٦- وتقول رواية - لم أسجلها هنا- إن ملوك ذلك البلد أكرهوا الناس على السجود أمام أصنام لهم وعلى تقديم القرابين لها. ٧- وورد في رواية عن ابن عباس إن هذا

الحادث حصل قبل زمنه بثلاث مائة عام. ٨- تقول رواية إن أصحاب الكهف خرجوا في زمن الملك الروماني يندوسيس، الذي اسمه اللاتيني Theodosius. والواقع أنه بعد مطالعة تاريخ هذه السرايب ندرك أن هذه الروايات الإسلامية تهدينا إلى صلب الحقيقة بدلاً من أن تشوش أفكارنا. ذلك أننا نعرف من تاريخ الكنيسة وهذه السرايب أن الاضطهاد الفردي للمسيحيين كان بدأ بعد حادث الصليب مباشرة، ولكن الاضطهاد الجماعي بدأ في روما في زمن الملك نيرون. كان هذا الملك معاصراً للحواريين حيث كان عهده ما بين ٥٤ إلى ٦٨ بعد الميلاد (الموسوعة البريطانية الطبعة الحادية عشرة كلمة Neru). وكان النصارى القدامى يعتقدون أن بطرس صُلب في زمن هذا الملك. مما لا شك فيه أن نُقاد التاريخ المعاصرين- الذين يحاولون جاهدين التشكيك في كل حادث تاريخي- قد سعوا ليشككوا في هذا الأمر أيضاً، ولكنهم رغم جهودهم المضنية ما استطاعوا إبطال ذهاب بطرس إلى روما وموته هنالك (الموسوعة التوراتية مجلد ٤ كلمة Peter ١).

وثمة مستند في الكتابات المسيحية القديمة كتبه الأسقف Dionysius ويرجع إلى عام ١٧٧ بعد حادث الصليب، ويخبرنا عن ذهاب بطرس إلى روما. وبما أن بطرس عمّر بعد حادث الصليب لحوالي ٦٧ أو ٨٠ عاماً لذا فإن هذا المستند تمت كتابته بعد وفاة بطرس بحوالي ١٠٠ عام. ولا يمكن الاستهانة بمثل هذه الشهادة التي هي قريبة العهد من زمنهم، خصوصاً وأن كاتبها أسقف كبير من الكنيسة (الموسوعة التوراتية مجلد ٤ كلمة Simon Peter).

كما جاء أنه من الثابت تاريخياً أن قبر بطرس في روما أصبح مزاراً للناس بعد حادث الصليب بقرنين، وأن عظامه نُقلت إلى سرايب الموتى عام ٢٥٨. أما السؤال: هل كان ذلك القبر وتلك العظام لبطرس فعلاً، فتردّ عليه الموسوعة البريطانية: ليس بيدنا ما نستطيع به الجزم بذلك. (الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٥١ كلمة Peter ١).

وليس خفياً أن الشروط التي يجزمون بها على القضايا الأخرى متوفرة في هذه القضية أيضاً، حيث إن الرواة هم قريبو العهد من الحادث، كما أن هناك شهادة تاريخية من زمن لا يبعد عن وفاة بطرس بـ ١٢٥ عاماً، وهذه الشهادة هي كون قبره مزاراً للناس في روما. فسواء أكان الملك نيرون قتل بطرس أم لا فمن الثابت تاريخياً أن بطرس ذهب إلى روما، ومات هناك، وأن المسيحيين تعرضوا للاضطهاد حينذاك، وأنهم كانوا يفرون بحياتهم هنا وهناك.

ثم إننا نعرف من التاريخ أن الاضطهاد الروماني للمسيحيين بلغ ذروته في زمن ديسيوس أو دقيانوس. كانوا يعذبونهم بسن القوانين، وكل من لم يسجد للأوثان كان يُعتبر مسيحياً فيُسجن أو يُقتل. وكان حكم ديسيوس من ٢٤٩ إلى ٢٥١ الميلادي، وفي عامي ٢٥٠ و ٢٥١ قام بسنّ قوانين غاشمة ضد المسيحيين. (الموسوعة البريطانية طبعة ١٩١١ كلمة Decius، تاريخ الكنيسة).

ويخبرنا التاريخ أن الملك غاليريوس Galerius ألغى قبل موته في ٣١١ الميلادي

القوانين القاسية ضد النصارى. (The Historians History of the World v. ٧ p. ٤٣٩).

ثم في عام ٣٣٧ اعتنق الملك قسطنطين المسيحية، وفي زمن الملك Theodosius انتشرت المسيحية على نطاق واسع، وتمتع النصارى بالأمان من قبل عامة الناس أيضاً (الموسوعة البريطانية طبع ١٩٥١ كلمة Constantine).

لقد اتضح من هذه الشواهد التاريخية أن المسيحيين الأوائل تعرضوا للاضطهاد في فلسطين منذ زمن هيروودوتس وفي روما بدءاً من عهد الملك نيرون حتى ٣١١ الميلادي، وأنهم كانوا يفرون ويختفون في الكهوف هنا وهناك أيام الاضطهاد.

بالتدبر في هذه الأحداث من السهل أن ندرك أن أصحاب الكهف هم المسيحيون الأوائل الرومان، وأنهم تعرضوا للظلم الذي بدأ في عهد أحد حواربي المسيح مئات السنين. لقد بلغ اضطهادهم ذروته في زمن ديسيوس، وعفي عنهم في عهد الملك Galerius؛ وتم إيقاف الاضطهاد بسن القانون في عهد قسطنطين؛ وحققوا ازدهاراً واسعاً في عهد الملك Theodosius.

وعلى ضوء هذه الأحداث لو تدبرنا الآن في روايات المفسرين - غاضين الطرف عن المبالغات التي أُضيفت إليها حتمًا من قبل الرواة المسيحيين واليهود - لوجدنا أن هذه الروايات تدلنا على أصحاب الكهف دلالة صحيحة. والحق أن هذه الروايات خالية من الاختلاف أيضًا. لقد رأى الناس في هذه الروايات اختلافًا لأنهم ظنوا قصص الاضطهاد هذه من زمن واحد، وأن هذا هو تاريخ الاضطهاد كله، مع أن الاضطهاد وقع على فترات عديدة وفي أزمنة مختلفة. لقد حصل هذا في زمن الملك نيرون حين كان بطرس موجودًا في روما، وإلى ذلك يشير ما رواه ابن إسحاق. كما حصل الاضطهاد في عهد الملك ديسيوس، وإليه تشير رواية ابن المنذر على ما يبدو. إن فترة هذا الاضطهاد امتدت إلى ثلاثة قرون، وكلما اشتدت وطأته عاش المسيحيون المضطهدون في الكهوف، فاشتهرت بين القوم قصص شتى عن تضحياتهم. فمنهم من سمع ما حدث ببطرس، فظن أن تاريخ أصحاب الكهف ينحصر فيما حصل ببطرس فحسب. ومنهم من سمع ما حصل في زمن الملك ديسيوس، فظن أن هذه هي قصة الاضطهاد فقط. ولكن إذا اعتبرنا هذه القصص أحداثًا من عصور شتى، غاضين الطرف عما ورد فيها من المبالغات التي تجد طريقها إلى مثل هذه الأمور عمومًا، فكل هذه الروايات تبدو صحيحة، وترسم لنا مشهدًا موجزًا للاضطهاد المريع الذي تعرض له المسيحيون الأوائل.

وأوجز لكم الآن بعض الحقائق المتعلقة بالكهوف. وكما قلت من قبل إن المراد من الكهوف هنا سراديب الموتى، وهي مغارات تحت الأرض. كان من عادة الرومان واليهود أن يضعوا موتاهم في الغرف تحت الأرض. وكانت هناك خارج المدن الكبيرة في الإمبراطورية الرومانية أماكن مخصصة لهذا الغرض، وتسمى سراديب الموتى. لما تعرض المسيحيون للاضطهاد فروا بجياهم ولاذوا بهذه المقابر. وقد فعلوا ذلك لسببين: الأول أن هذه السراديب كانت تساعدهم على الاختفاء والجلوس والمبيت والاحتماء من الطقس بكل سهولة. والثاني أن الناس يخافون القبور عمومًا، فكان في اختفائهم فيها ضمان أن يظلوا بعيدين عن أعين الناس.

وقد اكتشف العلماء هذه السرايب قريباً من روما وصقلية و نابولي ومالطة وفي
الأسكندرية بمصر (الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٧٢ كلمة Catacombs).

يقول السيد Benjamin Scot في كتابه "سرايب روما": "وعندي أنه حتى في
ذلك الزمن البدائي - الذي ذهب فيه بولس إلى روما - كان المسيحيون يلجأون
إلى هذه الغرف الأرضية فراراً بحياتهم من غيظ الناس واضطهاد اليهود والحكومة
الرومانية."

ثم يضيف: "لا جرم أنهم كانوا فعلاً مضطرين للاختفاء في هذه المغارات
والكهوف الأرضية" (The Catacombs at Rome p. ٦٥-١٦٤).

والجدير بالذكر أن المؤلف قد استخدم لهذه الغرف الأرضية كلمة (Cave)،
وهي صورة مشوهة للفظ العربي "كهف"؛ وكأن هذا المؤلف الإنجليزي قد
استخدم نفس الكلمة التي وردت في القرآن الكريم.

وأما قوله إن المسيحيين كانوا مضطرين للاختفاء في هذه الكهوف فهو ثابت
بشهادة المؤرخ الرومي تاقيطس (Tacitus) حيث يقول: كان الملك نيرون يسرُّ
جماهيره بإحراق النصارى أحياءً، وكان يلقيهم أمام الكلاب الضارية، ويصلبهم
بطرق شتى؛ وقد خصص حديقته الملكية لتنفيذ هذه العقوبات.

(Tacitus.. The Annals and The Histories p. ٢٥٧-٢٥٨)

فالقوم الذين تعرّضوا للاضطهاد الشديد على هذا النطاق الواسع لم يكن أمامهم
مناص إلا الاختفاء هنا وهناك فراراً بحياتهم.

وأيام لجوئهم إلى هذه السرايب بدأ النصارى يبنون فيها غرفاً أخرى ليزدادوا
تحصناً. كما كانوا يأتون بجثث شهدائهم إلى السرايب ويدفنونها فيها مخافة أن
تتعرض للإساءة. وبما أن الاضطهاد استمر لثلاثة قرون فكثرت الغرف الإضافية
داخل السرايب حتى امتدت تحت الأرض لحوالي ١٥ ميلاً في رأي البعض.

(The Catacombs at Rome p. ٦٥ To ١٦٤)

وبما أن الظلم لا يكون عمومًا على منوال واحد في كل الأيام حيث كان بعض الملوك أقل قسوة، لذلك كان المسيحيون يرجعون إلى المدن حين تحفّ وطأة الظلم، ويرجعون إلى الكهوف ثانية حين تشتد وطأته، ويبدو أنهم كانوا يضطرون للعيش فيها لشهور وسنين، حيث توجد داخل السرايب غرف للمدارس والكنائس أيضًا.

لهذه السرايب ثلاثة طوابق، ولقد رأيتها بأم عيني أثناء مروري بروما حين سافرت إلى إنجلترا عام ١٩٢٤. يستطيع الإنسان زيارة غرف الطابق العلوي بدون صعوبة كبيرة، ولكنه يشعر بضيق التنفس أثناء زيارة غرف الطابق الثاني، أما غرف الطابق الأخير فزيارتها شبه مستحيلة لشدة الرطوبة والظلام. ولقد وجدت أن المسيحيين قد حولوا هذه الغرف إلى متاحف، واتخذوا للتحصن التدابير التالية: أولاً، كانوا يربطون الكلاب على أبواب السرايب لتدللهم بنباحها على قدوم شخص أجنبي.

ثانياً، كانوا لا يبنون السلام الطينية للنزول من سطح الأرض إلى الغرف الأرضية، بل كانوا يستخدمون لهذا الغرض السلام الخشبية التي كانوا يزيلونها بعد استخدامها، كيلا يتمكن العدو الداهم من الوصول فوراً إلى الغرف الأرضية التي كانوا يعيشون فيها.

ثالثاً، أما إذا وصل العدو إلى غرفة عيشهم بالقفز أو بالسلام التي أتى بها معه، فكان الطريق لحماية أنفسهم منه أنهم جعلوا في كل غرفة أربعة أبواب كان الواحد منها فقط يؤدي إلى الغرفة التالية بينما كانت الأبواب الثلاثة الباقية تؤدي إلى أنفاق مسدودة. فكانوا يلوذون على الفور إلى الغرفة المجاورة لمعرفةهم بالباب الحقيقي، بينما كان العدو المطارد يدخل الباب الخاطيء ثم يرجع القهقري حين يجد الطريق أمامه مسدوداً، وهكذا كان العدو يضيع في بحثه عن الباب الأصلي وقتاً كثيراً، وبالتالي كان يتأخر كثيراً عن النصرى الفارين من بطشه. وكانت هذه المطاردة المرهقة تثبط من همم رجال الشرطة فكانوا يتركون ملاحقتهم.

رابعاً، أما إذا استمروا في الملاحقة فكان النصرارى ينزلون إلى الطابق الثاني من
 الغرف الأرضية التي كانت أكثر ضيقاً وظلاماً وتعقيداً.
 خامساً، ولو افترضنا أن الشرطة استمرت في ملاحقتهم هنا أيضاً فكان هناك
 غرف الطابق الثالث التي كان النصرارى لا ينزلون إليها إلا لفترة قصيرة أثناء
 مطاردة الشرطة فقط على ما يبدو. ذلك أننا لم نقدر أثناء زيارتنا لها على المكوث
 فيها أكثر من ثلاث أو أربع دقائق، وإن كان أحد أسبابه أن الرطوبة فيها قد
 أصبحت الآن عالية جداً. إنها غرف موحشة تماماً. وبما أن طول كل هذه الطرق
 داخل السرايب يبلغ عدة مئات من الأميال فلم يكن القبض على النصرارى فيها
 بالأمر الهين. ولكن لا قبل للإنسان بالحكومات، فكانت الشرطة تنجح في القبض
 عليهم أحياناً، وتقتلهم في مكائهم على الفور. ولقد شاهدت بنفسى هناك عدداً
 من قبور أولئك الشهداء. وقد قرأ علينا أحد القسيسين، بطلب منا، بعضاً من
 لوحات تلك القبور، فوجدناها تحكي قصصاً مؤلمة لاستشهاد أولئك الناس.
 ولقد اكتشفوا في الفترة الأخيرة المزيد من اللوحات والقبور التي بعضها لأولئك
 القوم الذين أقام بطرس عندهم، أو الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس.
 (الموسوعة البريطانية الطبعة الرابعة عشرة كلمة Catacombs). في عهد الملك ديسيوس سنّ
 القانون لإجبار النصرارى على السجود للأصنام، فصبت عليهم المصائب في زمنه
 صباً، ففضوا كل هذه الفترة تقريباً في السرايب، إلا الذين ارتدوا منهم في الظاهر
 عن دينهم. إذاً فإن أصحاب الكهف قد ضربوا في تلك الفترة مثلاً رائعاً للتضحية
 والفداء في سبيل الله تعالى. ويتضح من اللوحات التي عُثر عليها في السرايب أنه
 لم يكن عند نصرارى ذلك العصر أثر للشرك والوثنية، حيث لا توجد في هذه
 اللوحات كلمة واحدة تدل على الشرك. لم يقدم فيها المسيح كابن لله تعالى، بل
 على صورة راعٍ فحسب. كما تدل هذه اللوحات على تعظيمه غير العادي
 لوالدته. إن معظم هذه اللوحات تركز على إبراز حادث النبي يونس وعلى إبراز
 الحدث الأخير لدى حادث طوفان نوح حيث جاءت حمامة بخر انكشاف وجه

الأرض. مما يدل على أن هؤلاء لم يتركوا العمل بالعهد القديم، وكانوا يؤمنون بالمسيح كنبى وراع روحاني فحسب (انظر المرجع السابق، و The Catacombs at Rome by B. Scott وكتاب الدكتور Meat Land) فالخلاصة أن الله تعالى قد ذكر من خلال حادث أصحاب الكهف أحوال المسيحيين الأوائل، مشيراً إلى بداية الأمة المسيحية حيث كانوا يجاربون الوثنية والشرك، وقدموا في سبيل ذلك تضحيات جسيمة لقرون طويلة؛ أما اليوم فلا يوجد فيهم أي أثر لدينهم الأصلي.

لَحْنُ نَقْصٍ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ

وَزَدْنَاهُمْ هُدًى

شرح الكلمات:

نَقْصٌ: قصُّ أثره يقصُّ قصًّا وقصصًا: تتبَّعه شيئًا بعد شيء، ومنه "فارتدَّا على آثارهما قصصًا" أي رجعا في الطريق التي سلكاها يقصان الأثر. وقصَّ عليه الخبر والرؤيا: حدَّث بهما على وجههما، ومنه "لحن نقصَّ عليك أحسن القصص" أي نبين لك أحسن البيان (الأقرب).

نَبَأٌ: نَبَأَ الخَيْرَ وبالخير: خَبَّرَهُ، ويقال: نَبَأْتُ زَيْدًا عَمْرًا منطلقًا أي أعلمته. والنَّبَأُ الخَبْرُ. وقال في الكلبيات: النبأ والأنباء لم يردا في القرآن إلا لما له وقع وشأن عظيم (الأقرب).

الحق: حَقَّهُ حَقًّا: غلبه على الحقِّ. وحقَّ الأمر: أثبتَه وأوجبَه؛ كان على يقين منه. حَقَّ الخَيْرَ: وَقَفَ على حقيقته. والحقُّ: ضدُّ الباطل؛ الأمرُ المقضي؛ العدلُ؛ الملكُ؛ الموجودُ الثابت؛ اليقِينُ بعد الشك؛ الموتُ؛ الحزْمُ (الأقرب).

التفسير: يبين الله تعالى: نحن نروي لك أحداثهم كما وقعت. وهذا يعني أنه كانت هناك قصص شائعة بين القوم عن أصحاب الكهف، وأن تلك القصص القديمة عارية عن الصحة.

والآية السابقة أيضاً تدل على وجود قصص شائعة عن هؤلاء القوم. ذلك أن البيان القرآني عنهم إنما يبدأ من هذه الآية، أما ما سبقه من البيان فهو، كما يبدو، ملخص صحيح للروايات الشائعة عنهم في ذلك الوقت.

ثم يقول الله تعالى ﴿إِهِمْ فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي جماعة من الشرفاء أو الأسخياء أو الشباب الذين آمنوا برَبِّهِمْ، ذلك أن الفتى يعني السخي الكريم أو الشاب (الأقرب). والحق أن الشباب أكثر إسهاماً في الخدمات الدينية على العموم، حيث نجد أن كل من آمنوا بالرسول ﷺ كانوا أصغر منه سنّاً إلا قليلاً منهم.

وقد تكون كلمة "فتية" إشارة إلى فئة معينة من النصارى اللاجئيين في هذه الكهوف كانت أكثرهم تضحية. وقد يكون مفهومها عاماً يشمل جميع النصارى الشرفاء الذين تمسكوا بدينهم وقدموا التضحيات طيلة هذه الفترة الممتدة إلى ثلاثة قرون. وأنا شخصياً أفضل المفهوم الأخير.

أما قول الله تعالى "فَزِدْنَاهُمْ هُدًى" فيعني أننا زدناهم إيماناً على إيمانهم بسبب تضحياتهم.

وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ: ربط الشيء يربط ويربط رَبَطًا: أوثقته وشده. ربط جأشه رباطة: اشتد قلبه. وربط الله على قلبه: صبره (الأقرب).

شَطَطًا: شَطَّ شَطَطًا: جَارَ؛ أَفْرَطَ. وَشَطَّ فِي سَلْعَتِهِ شَطَطًا: جَاوَزَ الْقَدْرَ الْمَحْدُودَ؛ تَبَاعَدَ عَنِ الْحَقِّ. وَشَطَّ فِي السَّوْمِ: غَالَى فِي الثَّمَنِ. وَالشَّطَطُ: مَجَاوِزَةُ الْقَدْرِ وَالْحَدِّ (الأقرب).

التفسير: بين الله تعالى بالرغم أن الملك والجماهير كلهم كانوا يعارضونهم إلا أنه تعالى قوى قلوبهم وصبرهم، فقاموا وأعلنوا عن عقيدتهم غير خائفين.

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ
بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

سلطان: السلطان؛ الحجّة؛ التسلط؛ قدرة الملك (الأقرب).

بين: البين؛ الواضح الجلي (الأقرب).

التفسير: يتضح من هذه الآية أن القوم الذين خرج من بينهم أصحاب الكهف كانوا يعبدون الأصنام حيث اتخذوا آلهة كثيرة من دون الله تعالى. وهكذا كانت حال الرومان حيث كانوا يعبدون أوثاناً كثيرة.

كما يتضح من قول الله هذا أن هذه الفئة من عباد الله الموحدين لم تكن عبارة عن فتيان متشنتين متفرقين، بل كانوا متمسكين بدين واحد، يتزاورون فيما بينهم. ذلك أن مضمون هذه الآية يدل على أنهم كانوا يديرون هذه الحوارات فيما بينهم على انفراد.

وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأُورُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ
لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

يَنْشُرْ: نَشَرَ الثوبَ: بَسَطَهُ، خِلافُ طَوَاه. نَشَرْتُ أَوْراقُ الشجرِ: انبسطت
وامتدَّت. نَشَرَ الخَبِرَ نَشْرًا: أذاعَهُ (الأقرب).

مَرْفَقًا: رَفَقَ بِهِ وَعَلِيهِ وَلَهُ يَرْفِقُ مَرْفَقًا: لَطْفٌ وَلَمْ يَعْنِفْ (الأقرب).

التفسير: لقد عرفوا كلمة "الكهف" في قولهم: "فأوروا إلى الكهف"، وهذا يدل
على أنهم عنوا به كهفًا معيَّنًا شهيرًا في منطقتهم، وكان كل واحد منهم يعرفه.
ولو كان المراد به أي كهف لقالوا "فأوروا إلى كهف".

وقد اشتهر هذا الكهف من قبل لأن العبيد كانوا يفرون ويختفون فيه لدى
تعرضهم للظلم الشديد على أيدي أسيادهم الرومان. مما لا شك فيه أنهم قاموا
بتوسيع هذا الكهف كثيرًا، ولكنه كان واسعًا من قبل أيضًا.

كما يتضح من هذه الآية أن أصحاب الكهف كانوا هدفًا للاضطهاد منذ فترة
طويلة قبل لجوئهم إلى كهفهم. ذلك أن قولهم ﴿وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ﴾ يدل على أن
قومهم قد قاموا بمقاطعتهم اجتماعيًا، فكانوا يعيشون في مجموعة منفصلة عن باقي
القوم. فقرروا بالتشاور أنهم سيفعلون ما فعل العبيد من قبل، وسيختفون في
الكهف حين تشتد وطأة الظلم ويصبح العيش بين القوم ضارًا بدينهم.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ

وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ

ءَايَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

تَزَاوَرُ: أصله تتزاورُ وقد حُذفت إحدى التاءين بحسب القواعد العربية. ومعنى "تزاورَ عنه: عدل عنه وانحرف" (الأقرب).

تَقْرَضُهُمْ: قرَضَ الشيءَ يقرضُ قرضاً: قطعهُ. قرَضَ الوادي: جازَه. قرَضَ المكانَ: عدل عنه وتنكبهُ (الأقرب).

فَجْوَةٌ: الفجوةُ: الفُرْجَةُ بين الشيئين؛ ما اتسع من الأرض؛ ساحةُ الدارِ (الأقرب).

مرشداً: أرشده: هداه (الأقرب).. أي: ١- دَلَّه على الطريق؛ ٢- أوضحه له بينه له؛ ٣- أوصله إلى غايته؛ ٤- هداه إلى الإيمان.

التفسير: لقد بين الله ﷻ هنا مكان هذا الكهف. يتضح من علامات الكهف المذكورة هنا أن هؤلاء كانوا يقيمون في أقصى المناطق الشمالية من الكرة الأرضية، لأننا إذا كنا في المناطق الشمالية من الأرض واتجهنا إلى الشرق تكون الشمس على يميننا، وإذا كنا في المناطق الجنوبية واتجهنا إلى الشرق تكون الشمس على يسارنا.

كما يتضح لنا من هذا الوصف القرآني أن فوهة كهفهم كانت في الجهة الشمالية الغربية، لأن المبنى الذي وجهه إلى الشمال تمر الشمس من يمينه إلى شماله. وقوله تعالى ﴿وهم في فجوة منه﴾ يدل على وجود مساحة واسعة داخل الكهف. وهذا ما تؤكدته تلك السرايب لأنها واسعة جداً من داخلها، وقد قدر البعض الطولَ الإجمالي لشوارعها وغرفها المبنية في الطوابق الثلاثة بحوالي ٨٧٠ ميلاً! كما كان ضوء الشمس لا يصل داخل تلك السرايب إلا قليلاً، ولولا ذلك

لألقي القبض على أهلها. لقد حُفرت السرايبُ حفرًا يوصل إليها الهواء، من دون أن يدخل إليها الضوء الذي يدل على وجودهم. قال St. Jerome في القرن الرابع الميلادي: إن هذه الغرف مظلمة لدرجة مذهلة، ولا يمكن أن يصل إليها ضوء الشمس إلا إذا كان هناك تصدُّعٌ أو تشقُّقٌ في المبنى. (الموسوعة البريطانية طبعة ١١ - ١٩١٠ كلمة Catecombs of Rome).

والحق أنه بيان موقعهم الجغرافي قد نبّه الله تعالى المسلمين أن لهم عدوًّا في الشمال فليأخذوا منه حذرهم، ولكن المسلمين للأسف لم ينتبهوا لذلك. يقول الله تعالى بعد ذلك ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾.. أي لقد أشرنا ولكن لن يفهم إشارتنا إلا المهتدون.. بمعنى أن المسلمين الذين يوالون هذه الشعوب يهلكون، أما المسلمون الذين يكونون على اتفاق واتحاد فيما بينهم يفلحون. ولكن الأسف أن المسلمين تحاربوا فيما بينهم، بينما تصالحوا مع ملوك الروم، اللهم إلا المسلمين الأوائل. ورد في التاريخ أن ملك الروم لما سمع عن الحرب الدائرة بين سيدنا علي ومعاوية رضي الله عنهما أراد الهجوم على الدولة الإسلامية، فكتب معاوية إلى ملك الروم: حذار أن تغترب بالنزاع بيننا. فوالله، لو هاجمت عليًّا لسوف أكون أول قائد يخرج لمحاربتك من قبله ﷺ.*

ولكن لما انحرف المسلمون عن الإسلام تصالح ملوك بغداد مع الحكومة الرومانية الشرقية الشهيرة بالبيزنطية وذلك لضرب الدولة الإسلامية بأسبانيا. أما الملوك المسلمون بإسبانيا فأرسلوا الهدايا إلى بابا روما وتصالحوا معه، وذلك لضرب الدولة الإسلامية ببغداد. إنا لله وإنا إليه راجعون.

* ونص الرواية كالاتي: "فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب عليّ تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه. فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجتك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت" (البداية والنهاية مجلد ٧ ص ١١٩).

علماً أن المقطعة القرآنية ﴿المر﴾ هي التي لفتت نظري إلى هذا الأمر أساساً، ونبهتني إلى هذا الخطأ الفادح والمؤلم الذي ارتكبه المسلمون.

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ
أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ۖ وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

تحسبهم: حسبه: ظنه (الأقرب).

أيقاظًا: يقظ الرجل: ضد نام وتنبه للأمور وحذر وفطن، فهو يقظ ويقظ ويقظان، والجمع أيقاظ (الأقرب).

رُقُودٌ: رقد الرجل يرقد رقاداً ورقوداً: نام. رقد الحر: سكن. رقد الثوب: أخلق. رقد عن الأمر: غفل. والراقد: النائم والجمع رُقُودٌ ورقُودٌ (الأقرب).

نقلبهم: قلبه حوله عن وجهه. قلب الشيء: حوله وجعل أعلاه أسفله. وقلب الشيء للابتياح: تصفحه فرأى داخله وباطنه. قلب الأمر ظهرًا لبطن: اختبره. قلب القوم: صرفهم (الأقرب).

الوصيد: الفناء؛ العتبة؛ بيت كالحظيرة يُتخذ من الحجارة للمال أي الغنم وغيرها في الجبال؛ الجبل؛ النبات المتقاربُ الأصول؛ الضيق والمطبق (الأقرب).

التفسير: أرى أن هذه الآية لا تتحدث عن الأيام الأوائل لأصحاب الكهف، بل تبين حالة هذه الشعوب زمن نزول القرآن. يخبر الله تعالى: أنكم تظنون أن هذه الشعوب الشمالية أيقاظ، كلا، بل هي نيام، وستستيقظ في المستقبل. وكأنه تعالى يقول: يجب أن تعتبروهم نياماً بالنظر إلى ما سيكونون عليه في المستقبل.

وكان هذا تنبيهاً إلهياً للمسلمين أنهم لو كسروا شوكة هؤلاء القوم الآن لصاروا في مأمن من شرهم في المستقبل. ولكن الأسف أن المسلمين بعد زمن سيدنا عثمان رضي الله عنه تمادوا في التصدي لهؤلاء القوم، ولو أنهم استمروا في زحفهم على الحكومة البيزنطية وقضوا عليها لكانت خريطة العالم غير التي نراها اليوم. علماً أنه كان للمسلمين كل الحق للهجوم على تلك الحكومة لأنها هي التي بدأت بالعدوان على المسلمين.

أما قوله تعالى ﴿وَنَقَلْبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾ فأخبر فيه أنه تعالى سينشرهم في العالم، وذلك الوقت هو بمثابة موعد استيقاظهم؛ فليأخذ المسلمون قبل حلوله التدابير اللازمة لحمايتهم.

وأما قوله تعالى ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ فهو إشارة إلى الحكومة البيزنطية التي تقوم بحماية أوروبا من جانبي بحر مرمرة، حيث يبدو هذا البحر وكأنه كلب يقوم بالحراسة باسطاً ذراعيه إلى اليمين والشمال. لا شك أن الأتراك قاموا بفتح هذه المنطقة، ولكنه كان بعد فوات الأوان، حيث قويت وقتئذ شوكة القوى الشمالية، ولم يعد الأتراك قادرين على مقاومتها. فلو أن الدولة البغدادية والدولة الإسبانية تحالفتا وبسطتا نفوذهما على بلاد الشمال لكانت فرصة ذهبية، إذ لو أن الإسلام انتشر في تلك البقاع في ذلك الوقت لما رأينا الآن هذه الأيام الحالكة.

وقد يكون قوله تعالى ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ نبأً عن اقتناء هذه الشعوب الكلاب بكثرة. وبالفعل ترون الأوروبيين يربون الكلاب بكثرة من أجل الحراسة، وكل من يزور بيوتهم يخاف كلابهم أولاً وقبل كل شيء.

قد يقال هنا: كيف كان رد هذا الخطر ممكناً مع أنه قدر مقدور من الله تعالى؟ الحق أن أصحاب هذا الاعتراض لا يدركون حقيقة الأنباء الإلهية، لأن من سنن الله تعالى إلغاء الأنباء التحذيرية. ولو أن المسلمين عملوا بحسب الإنذار الإلهي لما

كان الإسلام في هذا الضعف والاضمحلال الذي هو فيه اليوم، بل لوجدنا في أوروبا أنصاراً يتعاطفون معه ويخففون من شدة الحملة المسيحية على الإسلام. أما قوله تعالى ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ فهو أيضاً نبأ يتعلق بزمان انتشار هذه الشعوب من مناطق الشمال إلى الجنوب. وبالفعل ترون كيف استولى رعب هذه القوى الشمالية على العالم كله؛ وكل دولة، أياً كانت، مرهونة برحمة هذه الشعوب.

واعلم أن الخطاب في قوله تعالى ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً..﴾ لا يمكن أن يكون موجَّهاً إلى النبي ﷺ، بل هو موجَّه إلى الذين يعاصرون هذه الشعوب بعد أن يقبلهم الله تعالى ذات اليمين وذات الشمال. وبالفعل رأيتم كيف أن الدنيا كلها قد ملئت رعباً من هذه الشعوب خاصة قبل فترة قليلة، ولكن الله تعالى قد خفف رعبها عن الدنيا بخلق أسباب هلاكها، أما قبل ذلك فكان رعبها مستولياً على الناس لدرجة أن الناس كانوا يخافون حتى من السفر في عربات الدرجتين الأولى والثانية للقطار،* ويهابون الأوروبيين بمجرد رؤيتهم.

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ
 كَمْ لَبِئْتُمْ^ط قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ
 أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى
 الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ
 وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

* ذلك أن الأوروبيين كانوا يسافرون عموماً في هاتين الدرجتين من القطار. (المترجم)

شرح الكلمات:

وَرَق: الورق: الدراهم المضروبة (الأقرب).

أَزْكَى: زكاه يزكى زكاً ألف درهم: نقده إياه أو عجل له نقدها. وزكا فلاناً حقه: قضاة إياه. وزكا الشيء يزكو زكاً وزكوا: نما. وزكا الرجل: صلح وتنعم وكان في حصب (الأقرب). والزكاة: الطهارة والنماء والبركة (التاج).
طعاماً: الطعام: اسم لما يؤكل، وقد غلب الطعام على البر، وربما أطلق على الحبوب كلها (الأقرب).

رزق: الرزق: ما يُنتفع به؛ ما يُخرج للجندي رأس كل شهر (الأقرب).
وَلِيَتَلَطَّفَ: تلطف الأمر وفي الأمر: ترفق فيه؛ تخشع. وتلطف بفلان: احتال له حتى اطلع على أسراره (الأقرب).

لا يُشعرون: أشعر فلاناً الأمر أو به: أعلمه (الأقرب).

التفسير: لا تتحدث هذه الآية عن أولئك الذين كانوا يختفون في الكهوف في الزمن القديم، بل تتحدث عن الزمن الذي يقلب الله ﷻ هذه الشعوب فيه ذات اليمين وذات الشمال. كما أن قوله تعالى ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيضاً يشير إلى التقدم الذي سُحرزه في المستقبل شعوب الشمال التي تكون قد تنصرت حينذاك. علماً أن من أساليب القرآن أن يستخدم صيغة الماضي بكثرة للإدلاء بالأنباء المستقبلية، لأن صيغة الماضي هي بمثابة التأكيد على وقوع تلك الأنباء حتماً؛ ومثاله قوله تعالى ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل: ٢). ولقد اتبع القرآن هذا الأسلوب هنا أيضاً فقال ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

إذا فالله تعالى قد أخطر هنا أنه سيوقظ هذه الأمم التي هي كقوم نائمين حالياً، فيتساءلون فيما بينهم: كم لبثنا في حالة النوم؟ بمعنى أنه يجب علينا أن نستيقظ الآن. وبالفعل أفاقت هذه الشعوب من سباتها زمن الحروب الصليبية، فتحالفت ضد الإسلام للهجوم على البلاد الإسلامية.

أما قولهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فليس المراد به أنهم كانوا في شك فيما لو كانوا نائمين يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، بل هذا أسلوب يعبر به عن فترة طويلة غير محددة؛ ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى للكفار يوم القيامة ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾، فيقولون ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسئَلِ الْعَادِّينَ﴾ (المؤمنون: ١١٣-١١٤). والواضح من أسلوب هذا السؤال والجواب أن الكفار يعنون أنهم مكثوا فترة غير معينة. وهذا هو المراد من قول هذه الشعوب، إنهم ظلوا نيامًا لفترة غير محددة. وقد ذكر القرآن في موضع آخر أن فترة مكوث هذه الشعوب هي ألف سنة، حيث يقول الله تعالى ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ (طه: ١٠٣-١٠٤). أي حين يُنْفَخُ فِي الصُّور فسوف نهيج ونبعث المجرمين الروم ذوي العيون الزرقاء، فيقولون فيما بينهم بصوت خافض: لم نمكث إلا عشرًا أي عشرة قرون وهي ألف سنة.

علمًا أنني قد فسرتُ كلمة "زُرْقًا" بمعنى ذوي العيون الزرقاء التي هي صفة الشعوب الأوروبية لبياض لوهم. ذلك أن العرب كانوا يطلقون هذه التسمية على الروم لوجود العداوة الشديدة بينهم. فقد ورد في القاموس كلمة "الأزرق": "وقيل: معناه الشديداً العداوة لأن زُرْقَةَ العيون غالباً في الروم والديلم وبينهم وبين العرب عداوة شديدة، ثم لما كثر ذكرهم إياهم بهذه الصفة سمي كل عدو بذلك وإن لم يكن أزرق العين" (الأقرب).

إذاً فليس المراد أنهم كانوا في شك أنهم ربما لبثوا في حالة الغفلة قليلاً، بل المعنى أنهم لبثوا في تلك الحالة لفترة طويلة غير محددة. وقد أخبرت سورة طه أن طول هذه الفترة ألف سنة، كما بينت. وإذا جمعنا ألف سنة إلى السنة التي أعلن فيها النبي ﷺ دعواه كان المجموع ١٦١١: حيث كان مولده الشريف في عام ٥٧٠ الميلادي بحسب ما يراه السير وليم ميور (حياة محمد ص ٥)؛ وقد أعلن ﷺ دعواه وهو في سن الأربعين أي في عام ٦١١ الميلادي، وإذا جمعنا إليه ألف سنة كان المجموع ١٦١١ أو ١٦١٢ أي العام ١٦١١ الميلادي. وهو نفس العام الذي ثبت

فيه الإنجليز أقدامهم في الهند حيث سمح لهم الملوك المغول بالهند بالعمل في خليج البنغال عام ١٦١١، ثم منحوا لهم الرخصة لإنشاء مصنع في "سورت" عام ١٦١٢

(The March Of Man, Comparative Time Chart Of Universal History From ١٤٥١ to ١٦٧٥, Section ٤, Under; "British Colonies And Dominions Overseas")

وتعرف الدنيا كلها أن هذه الخطوة هي التي هيأت الأساس لرقى أهل أوروبا وانتشارهم في العالم كله، حيث ازدهر الأوروبيون باتباع خطوات الإنجليز هذه والاعتماد عليهم. ذلك أن تقدّم الإنجليز راجع إلى دخولهم في الهند، حيث لم يتمكنوا من الاستيلاء على الأقطار الأخرى من آسيا وأفريقيا إلا بعد أن تبتوا أقدامهم في الهند. ثم إن استيلاء الإنجليز على زمام البلاد المختلفة ساعد على تقدم الشعوب الأوروبية الأخرى.

ورب قائل يقول هنا: القرآن يتحدث هنا عن الروم، فما علاقة الإنجليز بهذا الموضوع؟ والجواب أن الحضارة الأوروبية إنما هي نتاج الحضارة الرومانية، والحق أن أوروبا كلها هي بمثابة تلميذ للرومان وتذكار للحضارة الرومانية؛ ثم إن المسيحية لم تنتشر في أوروبا إلا بواسطة الرومان. ومن أجل ذلك كله ذكر القرآن الأصل الذي خرجت منه هذه الفروع.

أما قوله تعالى ﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ فيعني: أيُّ الأطعمة أصْلَحُ وأطيبُ. والحق أن أكبر سبب لانتشار الشعوب الغربية في العالم هو أن بلادها لم تكن تنتج من الغلال ما فيه الكفاية، فكانوا يستوردون الغلال والتوابل ويشترونها من آسيا بواسطة العرب، ولكنهم لما اطلعوا على الطريق البحري المؤدي إلى الهند أخذوا تجارة هذه السلع بأيديهم مباشرة، ثم استولوا بالتدريج على تجارة الأشياء الأخرى. علمًا أن "طعامًا" لا يعني هنا الطبخ، لأنه يُطْلَقُ في اللغة العربية على كل ما يؤكل، وخاصة على القمح. والواقع أنه ما زالت الهند تسدّ حاجة أوروبا إلى القمح لقرنين، إلى أن حاولت أمريكا زرع القمح محليًا قبل زمن قريب.

إذا فقوهم ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ يعني أن أصحاب الكهف قالوا لزميلهم أن يبحث عن أفضل الغلال، لأن عليهم أن يدخروه لمدة طويلة. أما قولهم ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ فاعلم أن هذه هي صفة الشعوب الغربية، حيث يأمرهم المسؤولون الذين يبعثونهم إلى الخارج خاصة أن يتحدثوا دائماً بلطف ورفق. كما أن تجارهم أيضاً يتكلمون بأسلوب لين معسول حتى لا يثور الزبائن عليهم. وأما قولهم "فابعثوا أحدكم ... إلى قولهم ولا يُشعِرَنَّ بكم أحداً" فاعلم أنه بالرغم من قولهم ﴿أَحَدَكُمْ﴾ وبالرغم من ورود ضمائر المفرد بعد ذلك، أرى أن هذا لا يعني بالضرورة أنهم بعثوا شخصاً واحداً فقط للطعام. والدليل على ذلك أن القرآن الكريم ذكر في سياق قصة آدم عليه السلام إبليسَ أحياناً بضمير المفرد فقط مما يوحي وكأن كل الكلام موجه إلى إبليس وحده، مع أنه، في أماكن أخرى وفي سياق قصة آدم نفسها، ذكر مع إبليس جماعته أيضاً فقال ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، كما ذكر مع إبليس ذريته أيضاً في أحيان أخرى. كذلك الأمر هنا، فمع أنهم قالوا هنا: ﴿فابعثوا أحدكم﴾ إلا أن المراد أن ابعثوا بعضاً منكم لشراء هذه الحاجيات. وعندني أن كلمة ﴿أحدكم﴾ قد استخدمت هنا إشارةً إلى النظام الواحد.. أي فليذهب هؤلاء البعض جميعاً تحت نظام واحد بحيث يكون الشخص الواحد منهم مسؤولاً عمن معه.

أما قولهم ﴿وَلَا يُشعِرَنَّ بكم أحداً﴾ فيعني يجب أن تعملوا هنالك بحيث لا يحس ولا يدرك أحد أنكم تريدون بثّ نفوذكم في تلك البلاد، بل ينبغي أن تعاملوا أهلها بحيث يبقون غافلين عن أهدافكم الحقيقية.

لقد استخدم القرآن هؤلاء المشيرين والمشار عليهم صيغ الجمع، وعندني أن في ذلك إشارة إلى أن هذا الوفد التجاري سبيعت من قبل شركة مؤلفة من أناس كثيرين لا من قبل ملك واحد. وبالفعل نجد أن الوفود التجارية الإنجليزية أو الفرنسية التي جاءت إلى الهند لهذا الغرض قد بعثتها الشركات التجارية، لا ملكاً من الملوك (كمبني كي حكومت (أي حكومة الشركة) ص ٥٥ - ٥٦).

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ
وَلَنْ تَفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ: ظَهَرَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ: غَلَبَهُ. ظَهَرَ فَلانَ عَلَى السَّرِّ: اطلَّعَ عَلَيْهِ (الأقرب).

يرجُمُوكُمْ: راجع شرح الكلمات للآية رقم ١٨ من سورة الحجر.
مِلَّتِهِمْ: المِلَّةُ: الشريعةُ أو الدينُ، وقيل: المِلَّةُ والطريقةُ سواء، وهي اسم من أَمَلَيْتُ
الكتابَ، ثم نُقِلَتْ إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يُمليها النبيُّ، وقد نُطْلِقَ عَلَى
الباطلِ كـ "الكفر ملة واحدة"، ولا تُضَافُ إلى الله ولا إلى آحاد الأمة (الأقرب).
التفسير: قالوا: هذه الشعوب التي تبعثون إليها وفودكم لو اطلع أهلها على
أسراركم أو نازعوكم وحاربوكم، قبل تثبيت أقدامكم في بلادهم، لطرَدوكم منها
- علمًا أن من معاني الرجم الطرد أيضًا (الأقرب) - أو أكرهوكم على الدخول
في دينهم إذا لم يطرَدوكم. وفي كلتا الحالتين سوف تُكسِرَ شوكتكم، ولن
تزدھروا بعد ذلك أبدًا. وبالفعل ترون كيف أن الدول الأوروبية تساعد المسيحية
من أجل المصالح السياسية، وتتخذ كل نوع من التدابير للحيلولة دون انتشار
أفكار الشعوب الأخرى بين الأوروبيين.

وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا
أَبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

أَعْتَرْنَا: أَعْتَرَ فَلَانًا عَلَى السَّرِّ وَغَيْرِهِ: أَطْلَعَهُ. وَأَعْتَرَ بِهِ عِنْدَ السُّلْطَانِ: قَدَحَ فِيهِ وَطَلَبَ تَوْرِيظَهُ وَأَنْ يَقَعَ فِي عَائِثُورٍ. وَأَعْتَرَ فَلَانًا عَلَى أَصْحَابِهِ: دَلَّهُ عَلَيْهِم (الأقرب).

السَّاعَةَ: رَاجِعُ شَرْحِ الْآيَةِ رَقْمَ ٦٢ مِنْ سُورَةِ النَّحْلِ.

رَيْبٌ: رَابَهُ يَرِيبُ رَيْبًا: أَوْقَعَهُ فِي الرَّيْبَةِ وَأَوْصَلَ إِلَيْهِ الرَّيْبَةَ. وَالرَّيْبُ: الظُّنَّةُ وَالتَّهْمَةُ؛ الشُّكُّ؛ الْحَاجَةُ (الأقرب).

يَتَنَازَعُونَ: تَنَازَعُوا: اِخْتَلَفُوا؛ وَتَنَازَعُوا فِي الشَّيْءِ: تَخَاصَمُوا (الأقرب).

بُنْيَانًا: بَنَاهُ بَيْنَهُ بُنْيَانًا: نَقِيضُ هَدْمِهِ. بَنَى الْأَرْضَ: بَنَى فِيهَا دَارًا وَنَحْوَهَا (الأقرب).
مَسْجِدًا: الْمَسْجِدَ وَالْمَسْجِدَ: الْمَوْضِعَ الَّذِي يُسْجَدُ فِيهِ؛ وَكُلُّ مَوْضِعٍ يُتَعَبَّدُ فِيهِ فَهُوَ
مَسْجِدٌ؛ وَقِيلَ إِنَّ الْمَسْجِدَ بِالْكَسْرِ اسْمٌ لِمَوْضِعِ الْعِبَادَةِ سُجَّدَ فِيهِ أَمْ لَمْ يُسْجَدَ
(الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن هذه الشعوب التي ظلت منعزلة عن باقي العالم
لزمان طويل اتصلت هكذا بالعالم الخارجي مرة أخرى، وبالتالي علمت الدنيا أن
النبا الذي أدلينا به عن غلبة الشعوب المسيحية في آخر الزمن كان نبأ صادقًا تمامًا،
وأن الساعة الموعودة التي خوَّفناكم منها آتية دونما شك.

أما قوله تعالى ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ...﴾ فَعَرَّجَ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى الْحَالَةِ الْأُولَى
لأصحاب الكهف، حيث ذكر إحدى علاماتهم، وقال: إن من عادتهم منذ البداية

أُهم بينون المساجد أي المعابد باسم موتاهم.. بمعنى أنهم بينون الكنائس تذكراً لصلحائهم. وبالفعل تجدون الأمة المسيحية وحدها تبني الكنائس باسم صلحائها. لا يفعل ذلك المسلمون ولا اليهود، بينما يوجد عند النصارى آلاف الكنائس المبنية باسم صلحائهم، بل يدفنون فيها موتاهم. فثمة في سراديب الموتى كنائس كثيرة بُنيت تذكراً لأصحاب الكهف الأوائل (الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٥١ كلمة Catacombs).

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
 كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ
 رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً
 ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

رَجْمًا بِالْغَيْبِ: الرجم: أن يتكلم بالظن، يقال "رَجْمًا بِالْغَيْبِ" أي لا يُوقَف على حقيقته (الأقرب).

لَا تُمَارِ: ماراه مِمَارَةً وَمِرَاءً: جادلَه ونازَعَه ولاجَهه وطَعَنَ في قوله تزييفاً للقول وتصغيراً للقائل (الأقرب).

لَا تَسْتَفْتِ: صيغة النهي من استفتى فلان العالم في مسألة استفتاء: سأله أن يُفتي فيها (الأقرب).

التفسير: هذه الآية بدأ بحث آخر عن أصحاب الكهف الأوائل حيث يعلن الله تعالى أن الناس مختلفون في عددهم، فمنهم من يقول إنهم ثلاثة، ومنهم من يقول إنهم أربعة، ومنهم من يقول إنهم خمسة، ومنهم من يقول إنهم سبعة ثامنهم كلبهم؛ ولكنها أقوال ظنية فحسب.

ومن المفسرين من استنتج بأسلوب القرآن هذا أن عددهم سبعة في الواقع، محتجين أن كلمة ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ما وردت بعد هذا العدد بينما وردت مع الأعداد السابقة.

ولكن هذا الاستنتاج غير سليم، لأن الله تعالى لم يُسند عدد السبعة إلى نفسه، وإنما نسبه إلى الآخرين، ثم أردفه بقوله ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾. فلو كان هذا التقدير صحيحاً لما أمر الله نبيه ﷺ هنا ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾، بل لقال إن أصحاب الرأي الأخير مصيبون فيما يقولون. فالحق أن الله قد أكد خطأ أصحاب هذا الرأي أيضاً، لأن أصحاب الكهف لم يكونوا خمسة أو سبعة، بل كانوا آلافًا، واختفوا في الكهوف في عصور مختلفة. فالحق أن لا أحد يعرف عددهم إلا الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فليس معناه أن بعض الناس يعلمون عدد أصحاب الكهف، بل يمكن تفسير هذه الجملة بوجهين: الأول: أن لا أحد يعلم عددهم؛ ذلك أن لفظ "قليل" في العربية يعني النفي المطلق مثل كلمة Few في اللغة الإنجليزية، فيقال: "قليل من الرجال يقول ذلك.. أي لا يقول به أحد" (الأقرب). والوجه الثاني هو: لا يعلم حقيقة أصحاب الكهف إلا قليل؛ ذلك أن الله تعالى لم يقل هنا ما يعلم عددهم إلا قليل، بل قال ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، إذن فالمعنى أنه لا يعلم حقيقتهم إلا قليل من الناس الذين هم ملمون بالتاريخ الصحيح؛ فهم يعرفون أن أصحاب الكهف هم المسيحيون الأوائل الذين كانوا يختفون في السرايب؛ وأما غيرهم فأنخدعوا بشتى القصص الشائعة عن هؤلاء القوم. وبالفعل فقد انكشفت حقيقة أصحاب الكهف في النهاية بفضل علم هؤلاء القلة.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.. أي لا تتحدث عنهم إلا حديثاً مبدئياً دون الخوض في التفاصيل إذ لا أحد في الدنيا يعلم جميع التفاصيل. وفي ذلك إشارة ربانية إلى أن هذا الجزء من التاريخ قد اندثر، فلا أحد يعرف تفاصيل هذا الحادث، لذلك لو حاولتم معرفة التفاصيل فستخطئون. والأسف أنه برغم هذا النص القرآني خاض المسلمون في

التفاصيل لدرجة أنهم حاولوا أن يسألوا اليهود والنصارى حتى عن لون كلب أصحاب الكهف وطوله، وبالتالي ملأوا التفاسير بروايات خاطئة يندب ويبيكي الإنسان لدى قراءتها.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ ۗ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي
لِلْأَقْرَبِ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

غَدًا: الغد؛ اليوم الذي يأتي بعد يومك على أثر، ثم توسعوا فيه حتى أُطلق على البعيد المترقب (الأقرب).

التفسير: لقد ساق الله تعالى هنا نبأ آخر يتعلق بزمن غلبة هذه الشعوب فقال: لدى مواجعتهم لا تقل أبداً إننا سنقضي عليهم غداً إلا أن يخبرك الله ﷻ بوحيه أنه فاعل بهم كذا وكذا.

لقد قال البعض بأن الخطاب هنا موجه إلى رسول الله ﷺ حيث يأمره الله تعالى أن لا يعد بفعل شيء من دون أن يقول إن شاء الله، وقد نقلوا بهذا الصدد شتى الروايات السخيفة التي تمثل إساءة صريحة إلى الرسول الكريم ﷺ (ابن كثير، والقرطبي). وذلك بالرغم أنه ليس في كلمات الآية ما يدل على أنها تأمره ﷺ بقول إن شاء الله، وإلا لكانت الآية كالأتي: "ولا تقولنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ تَقُولَ إِن شَاءَ اللَّهُ" بدلاً من ﴿..... إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. كلا، بل الرسالة التي تحملها هذه الآية للمسلمين هي أنهم لن يقدرُوا بقوتهم على مقاومة هذه الأمة، وإنما سيتمكن من ذلك من سيقيمه الله بمشيئته لهذا الغرض.

الحق أن هذه الآية إشارة إلى ما سيفعله المسلمون إبان غلبة هذه الشعوب، حيث تخبرنا أنه سيأخذهم الحماس لدى رؤية غلبة هذه الأمة، وسيحاولون مقاومتها بالقوة، ولكنهم لن يفلحوا في ذلك أبداً.

كما أن هذه الآية تكشف حالة المسلمين في ذلك الزمن حيث إنهم سيعقدون الآمال على الغد بدلاً من العمل الجاد، وسيقولون دائماً سنفعل ذلك غداً. سيطلقون التهديدات بكثرة، ولكن لن تبقى فيهم قوة للعمل. سيرددون كلمة الغد دوماً، ولكن هذا الغد لن يأتي أبداً. وبالفعل ترون الشعوب الإسلامية تكشف بعملها في هذا الزمن صدق النبأ القرآني بكل جلاء، مما يبعث على الحيرة والأسف في وقت واحد.

ونصح بقوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ المسلمين أنه إذا دفعتهم الحمية للتفكير في مقاومة هذه الشعوب فعليهم أن يتذكروا الوعود الإلهية بهذا الصدد، لأن الله تعالى قد وعدهم أنه سينقذهم من هجمات هذه الأمم في يوم من الأيام، وسيهيئ من الغيب الأسباب لنجاتهم، لذا يجب عليهم أن ينفذوا من رؤوسهم فكرة اتخاذ التدابير الأخرى غير التدبير الإلهي.

أما قوله تعالى ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي ربي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ فهو أيضاً إعلان رباني أنكم لن تستطيعوا بتدابيركم المادية التغلب على هذه الشعوب في مئات السنين، ولكن الله تعالى سيهيئ بفضله الخاص الأسباب المفاجئة لحمايتكم من هذه الفتن.

من المؤسف أن المسلمين لم ينتفعوا بهذا النصح الإلهي، فأعلنوا الجهاد ضد الشعوب الأوروبية مرة بعد أخرى مما قلل من رعب الإسلام؛ بل لما نهامهم الناصحون عن مثل هذه التصرفات اعتبروهم أعداء للإسلام، ولم يفكروا أن من يدعوهم إلى العمل بتعليم القرآن لا يمكن أن يكون عدواً للإسلام، إنما أعداؤه الذين يتبعون الطريق الخاطئ رغم نهي القرآن عنه.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴿١٠١﴾

التفسير: يخبرنا الله تعالى هنا عن طول فترة المصائب التي حلت بأصحاب الكهف والتي اضطروا خلالها للاختفاء في كهوفهم مرة بعد أخرى. لقد امتدت تلك الفترة لثلاث مائة وتسع سنين. وهذا ما يؤكد التاريخ أيضاً، حيث بدأت هذه المظالم لدى حدث تعليق المسيح عليه السلام على الصليب، وانتهت تماماً حين تنصّر الملك قسطنطين - مؤسس مدينة القسطنطينية - عام ٣٣٧ الميلادي كما أسلفنا (انظر الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٥١ كلمة Church History).

وهذا التاريخ يبدو مخالفاً لما ذكره القرآن الكريم من طول فترة مصائب أصحاب الكهف، ولكنه ليس كذلك، لأننا إذا فحصنا تاريخ المسيحية وجدنا أن قسطنطين لم يتنصّر في الحقيقة عام ٣٣٧ الميلادي، بل بعد ٣٠٩ عاماً من حادث الصليب. والدليل على ذلك هو اعتراف الجغرافيين المسيحيين أنفسهم بوجود خطأ في التقويم الميلادي، حيث أثبت كل من المطران Ushers والدكتور Kitto في كتابه أن العام المذكور لحادث الصليب في التقويم الميلادي غلط، وأن هذا الخطأ حصل عام ٥٢٧ الميلادي (Daily Bible & Chronology Illustrations). إذ الواقع أن المسيح وُلد قبل بداية التقويم الميلادي الحالي بأربعة أو ستة أعوام، وعُلّق على الصليب وسُنّه ثلاثة وثلاثين عاماً. وإذا طرحنا خمسة أعوام - وهي أوسط الأربعة وستة الأعوام الناقصة في التقويم الميلادي خطأً - من ٣٣ عاماً التي هي عمر المسيح حين عُلّق على الصليب صار عندنا ٢٨ عاماً،

وهي الفترة بين ولادة المسيح وحادث الصليب بحسب التقويم الميلادي الحالي، وإذا طرحنا ٢٨ عامًا هذه من ٣٣٧ - وهي السنة التي تنصر فيها قسطنطين - كان عندنا ٣٠٩ أعوامًا بالضبط، وهي مدة اضطهاد المسيحيين عند القرآن تمامًا. علمًا أن هذا الحساب مبني على افتراض صحة الروايات المسيحية، ولكن بقطع النظر عن صدق هذه الشهادة، لا بد لنا من تصديق بيان القرآن الكريم في كل الأحوال، لأن ما يخبره القرآن الكريم عن الكتاب المقدس يتجلى صدقه دائمًا في نهاية المطاف. هذه الآية نصح إلهي لنا نحن المسلمين بأن لا نضيق ذرعًا بطول فترة المصائب. لقد أوذيت جماعة المسيحيين قبلنا لمدة ٣٠٩ سنين، ولكنهم صبروا، وفي آخر الأمر أكلوا الثمار الحلوة لصبرهم. فلا تتعجلوا، بل ثابروا على العمل وتحمل المشاقّ بهمة وثبات.

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا^ط لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^ص
أَبْصَرَ بِهِ^ج وَأَسْمِعَ^ج مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ^{هـ} مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ

فِي حُكْمِهِ^{هـ} أَحَدًا ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

غيب: الغيبُ: غابت الشمسُ وغيرها تغيبُ غيبًا: إذا استترت عن العين. واستعمل الغيبُ في كل غائب عن الحاسَّة، ويُضادُّه الشهادةُ (المفردات).
أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعَ: كلاهما فعلٌ تعجَّب، والمعنى ما أشدَّه بصيرةً وما أكثره سماعًا.
التفسير: لقد أخبر بقوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أن تواريخ المسيحيين ستعارض مع بيان القرآن هذا - كما سبق ذكره - فلا تنقوا بقولهم، لأن الله تعالى يعلم أنهم على خطأ. وبالفعل أكدت البحوث فيما بعد خطأهم.

ورب قائل يقول هنا: إن قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ يوهم أن البيان السابق خطأ؟ والجواب: لو كان البيان السابق مما قاله الكفار لكان هذا الاعتراض في محله، ولكن الله تعالى لم ينسبه إلى الكفار، فثبت أن البيان السابق هو من الله تعالى وأن الجملة التالية جاءت تأكيداً له، والمراد أن الناس سيختلفون في مدة مكوث أصحاب الكهف، ولكنهم سيكونون على خطأ والصحيح ما ذكرناه آنفاً.

أما قوله تعالى ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فيعني أن الصحيح هو ما أخبر الله به، لا ما يقوله الناس.

كما أن قوله تعالى ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ ما لهم من دونه من ولي ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾ يعني أن الله تعالى أعلم بأحوال الناس، فإنه ينصرهم ما تنزّهوا عن رجس الشرك، أما إذا وقعوا في الشرك حُرّموا من نصرته ﴿وَكَلِّكْ﴾.

وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

أُتْلُ: صيغة الأمر من تلا يتلو الكلام تلاوةً: قرأه (الأقرب).

ملتحدًا: الملتحد: الملجأ (الأقرب).

التفسير: لقد صرّح الله تعالى هنا لرسوله أنه لا يروي له هذا الحادث كقصة فحسب، بل إن هذا ما سيأتي على أمته أيضاً، وأن ما ذكر ﷺ يحتوي على أخبار صادقة من الماضي، كما ينطوي أيضاً على أنباء غيبية ستقع في المستقبل. هذا المعنى يفهم من قوله تعالى ﴿لا مبدّل لكلماته﴾، إذ لو لم يكن في ذلك أي نبأ عن المستقبل لما قال الله تعالى ﴿لا مبدّل لكلماته﴾، حيث لا مجال لتبديل أحداث الماضي. فهذه الجملة إذا تؤكد ما ذهبت إليه في تفسيري هذا. مما يعني

أن الذين اعتبروا الآيات السابقة قصةً من الماضي فحسب كانوا على خطأ، والحق أن بعضها تروي لنا أحداث الماضي، وبعضها تنطوي على أنباء مستقبلية تتعلق بالذين سيكونون أمثال أصحاب الكهف في المستقبل.

وهناك دليل آخر على أن هذه الآيات تنطوي على أنباء المستقبل، وأن الغاية من ذكر هذه القصة هي التنبؤ بأن جماعة من المسلمين ستمرّ بأحوال مماثلة، بمعنى أنهم أيضاً سيتعرضون للاضطهاد لإيمانهم بكلام الله تعالى. فقد ورد في رواية: أخرج ابن مردويه "عن ابن عباس رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصحاب الكهف أعوان المهدي" (الدر المنثور: سورة الكهف). وهذا لا ينفي وجود أصحاب الكهف في الماضي، لأنه سبق أن أخبرنا ابن عباس رضي الله عنه نفسه في رواية سجلناها من قبل أنه رأى عظام أصحاب الكهف، إنما المراد من ذلك أنه سيأتي على أتباع المهدي ما أتى على أصحاب الكهف، وأنهم سيؤذون مثلهم لإيمانهم بكلام الله تعالى.

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

واصْبِرْ: الصبر: ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله، فإذا دعا الله العبد في كشف الضر عنه لا يُقدح في صبره. وقال في الكليات: الصبر في المصيبة، أما في المحاربة فشجاعة. وصبر الرجل على الأمر: نقيض جزع. أي جرؤ وشجع وتجلد. وصبر عن الشيء: أمسك. وصبر الدابة: حبسها بلا علف.

وَصَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى كَذَا: حَبَسْتُهَا، وتقول: صَبَرْتُ عَلَى مَا أَكْرَهُ، وَصَبَرْتُ عَمَّا أُحِبُّ (الأقرب).

الغداة: البُكْرَةُ أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس، والجمعُ العُدُوُّ (الأقرب).

العشي: آخرُ النهار؛ وقيل: من صلاة المغرب إلى العتمة (الأقرب).
وَجْهَهُ: الوجه: نفسُ الشيء. والوجهُ من الدهرِ أوَّلُهُ. والوجه: سيِّدُ القومِ؛ الجاهُ؛ الجِهَةُ؛ ما يتوجه إليه الإنسان من عملٍ وغيره؛ القصدُ والنية؛ المرصاةُ (الأقرب).

لا تَعُدُّ: عدا يعدو فلاناً عن الأمر: صرفه وشغله. وعدا الأمرَ وعن الأمر: جاوزَه وترَكه (الأقرب).

أَغْفَلْنَا: غفل عنه: تركه وسها عنه. وأغفلَ الشيءَ: بمعنى غفل عنه (الأقرب).
الهوى: العشقُ يكون في الخير والشر؛ إرادة النفس؛ المَهْوِيُّ محموداً كان أو مذموماً، ثم غلب على غير المحمود، يقال "فلان أتبع هواه" إذا أُريدَ ذمُّه (الأقرب).

فُرْطًا: الفُرْطُ: الظلمُ والاعتداء؛ الأمرُ المَحَاوِزُ فيه عن الحد؛ الأمرُ المتروك؛ ﴿كان أمره فُرْطًا﴾ وقيل إسرافاً وتضييعاً (الأقرب).

التفسير: لقد زادت هذه الآية المعنى الذي بيَّنته جلاءً. ذلك أن الخطاب هنا ليس موجَّهاً إلى الرسول ﷺ، بل إلى كل قارئٍ للقرآن يدرك ذلك الزمن، وإلا فكيف يقال للرسول ﷺ أن يكون مع الذين يصلون بالغداة والعشي مع أنه ﷺ هو الذي كان يصلِّي بالناس ليلاً ونهاراً؟

فالحق أن الخطاب هنا موجه بالتأكيد إلى مسلمي ذلك العصر الذين سيرون أن الإسلام لن ينهض ثانية إلا بالأخذ بالأسباب المادية، فالله تعالى يأمرهم أن لا يقعوا في مثل هذا التفكير الخاطيء، بل عليهم أن ينضموا إلى جماعة تكون قائمة

على الإسلام إبان غلبة الشعوب المسيحية، ويصلي أفرادها لرهم بالعادة والعشي، يرجون فضله بالدعاء والابتهاال، ليجعلهم غالبين على الأعداء.

ثم يقول ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا تصرفوا، أيها المسلمون، أنظاركم عن هذه الجماعة العابدة إلى غيرها. لا شك أنكم ستجدون فرص رقي الدنيا وزينتها خارج هذه الجماعة، لكن لن تظفروا برضوان الله تعالى إذاً. فلا تحتقرن هذه الجماعة المتواضعة في الظاهر من أجل المطامع الدنيوية، ولا تتبعن خطوات الذين يكونون غافلين عن ذكر الله والتبليغ، ويريدون إصلاح الناس بالقوة، ويكونون مصابين بمرض الإفراط والتفريط وهوى السياسة.

كما نبه الله تعالى هنا إلى أن المصائب ستحل بالمسلمين في ذلك العصر لأسباب ثلاثة: الأول غفلتهم عن العبادات؛ والثاني الحب المفرط لأموال الدنيا؛ والثالث الانغماس في الملذات. فعلى المؤمن في ذلك الوقت الانشغال بالعبادة، والرغبة عن المال، والإنفاق في سبيل نشر الدين بعد قضاء حاجاته الضرورية.

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ^ط فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا^ح سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا
يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي^ج الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ

وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

سُرَادِقُ: السُّرَادِقُ: الفُسطاطُ الذي يُمدُّ فوق صحن البيت؛ البيتُ من الكُرْسُفِ؛ الغبارُ الساطعُ؛ الدخانُ المرتفعُ المحيطُ بالشيءِ (الأقرب).

المُهْل: اسمٌ يجمع معدنيّاتِ الجواهرِ كالفضّة والحديد ونحوهما؛ القَطْرانُ الرقيقُ؛ السَّمُّ؛ ما يتحاتُّ من الخبزِ من الرمادِ؛ القَيْحُ؛ صديدُ الميِّتِ خاصةً؛ ما ذابَ من صفرٍ أو حديدٍ؛ الزيتُ وقيلَ دُرْدِيهِ (الأقرب).

يَشْوِي: شوى اللحمَ: جعله شواءً. وشوى الماءَ: أسخنه (الأقرب).

مرْتَفَقًا: ارتفق الرجلُ: طلبَ رفيقًا؛ استعانَ؛ اتكأَ على مرفقٍ وقيلَ على مَحْدَةٍ. ارتفقَ الإناءُ: امتلأَ. ارتفقَ القومُ: ترافقوا في سفرٍ. والمرْتَفَقُ المَتَكِّأُ (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني أن ما أخبرناكم عن رقي المسلمين ودمار هذه الشعوب واقع حتمًا. وهذا أيضًا يؤكد جليًا أن هذا البيان القرآني نبا يتعلق بالمستقبل.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.. أي لا يجوز الإكراه في أمور الدين. كل واحد حرٌّ في أن يختار ما شاء ليتحمل بنفسه مسؤولية عمله، ولكن لا يمكن إجباره على الإيمان.

وفي هذا إشارة إلى أن ذلك الزمن لن يكون زمن الجهاد بالسيف، بل يكون زمن التبليغ. ومن واجب المسلمين عندها أن يعرضوا الحق على الناس، وهم مخيرون في أن يقبلوه أو يرفضوه، ولكن لا تجوز محاربتهم لهذا الغرض.

ومن المحتمل أن يتساءل هنا أحد: كيف تزول حالة ضعف المسلمين بدون الحرب والقتال؟ فأجاب عليه بأن الله تعالى سيهيئ من عنده الأسباب لذلك، وسيحيط بالأمم الأوروبية عذابُ حربٍ دائمةٍ وكأنها قد خيِّمت حول ديارهم؛ وكلما حاولوا وصرخوا من أجل السلام صُبَّ على وجوههم الحديد والمهل المغليين؛ أي أنهم سينادون بالسلام، ولكن لن تكون النتيجة إلا القنابل والقذائف، ولن تبقى بلادهم صالحة للإقامة، بل ستصبح مرتفقًا سيئًا.

ومن معاني الارتفاق التعاونُ والترافقُ، وعليه فالمراد من الآية أن هذه الشعوب ستنشئ الصداقات مع الأمم الأخرى، ولكنها ستسفر عن الحرب لا السلام.